

خلف السراب

وقصص أخرى

محمد محضار

- الكتاب: خلف السراب
- تأليف: ذ. محمد محضار
- الطبعة الأولى : 2018
- جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
- الإيداع القانوني 2018MO0097
- ردمك: 978-9920-35-010-5

مطبعة وراقية بلال ش.م.م
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
S.A.R.L



N°100 Av. Sidi slimane Rue Al Madina Al mounawara
Hay Al Amal, Narjiss FES
Tél/Fax: 05 35 61 86 03 - GSM: 06 61 68 70 55
Imp.bilal@gmail.com - www.imp-bilal.com

مقدمة

ماذا خلف السراب؟

هل يمكن أن تكون الحقيقة متسترة خلف مظاهر الحياة؟

هل يمكن أن تكون الحياة كحقيقة متسترة خلف الكتابة؟

هل يمكن أن تكون الحقيقة والحياة والكتابة مجرد
سراب؟

يُمكن أن تكون حياة كل واحد منا، على اختلاف
الدروب التي تعبرها، ليست سوى حلمٍ وقع في مكان
وزمان مختلفين، حلم متكرر، يقوم على حبكة واحدة،
المتغير الوحيد الممثلون وليست الأدوار. ذلك ما يجعلها
سراباً لا حقيقة خلفها، وينبغي على المرء إقناع نفسه
بأنها؛ الحياة، كذلك مجرد سراب، نلثت خلفه بدون
جدوى.

من الصعب الاعتراف بهذه الحقيقة، أن ما
يعيشه الإنسان كحقيقة مادية، وكفعل يومي، ليس في
النهاية غير ظلال مرسومة على جدران الكهف،
والكهف مظلمٌ، يأتيه بصيص نور من مكان قصي،

وإنسان الكهف أعشى، لا يرى الضوء، لا يرغب في رؤية النور، يفضل متابعة الظلال والأشباح.

في "قصص" الكاتب محمد محضار يتجلى الوعي في الكتابة وبها، أي أن الكاتب يرى الحياة والحقيقة سرايا، ولا يمكنهما التحقق فعليا إلا في مداد الكتابة وعبره، ففي الكتابة يتمكن الكاتب من الانفلات من القيود الموضوعية أمام انطلاق الفرد نحو ذاته؛ قيود المجتمع العرفية التي تفصل بين الإنسان والإنسان بمعايير غير إنسانية، كأن تفصل بين "سامية" التي وهبت الجمال والذكاء والمال، وبين "عبد الحق" الذي سلب منه العمل والمال، والقيود القانونية والسياسية التي تفصل بين الإنسان والإنسان اعتمادا على اختلاف في الموقف، فتجعل الظالم مستلذا مستمتعا بنعيم الحياة (السراب) وتقذف بالمظلوم في جحيم العتمة وبرد المشافي والمنافي... يقول: "فالغلبة دائمة للقوي. الضعفاء يسقطون دونما انقطاع، والأقوياء يمشون على نواصيهم. الوجود يتحول إلى أكلوبة لا معنى لها، والقطيع يواصل مسيرته خلف السراب."

ألا يمكن التفكير في "القوة/ الأقوياء" من زاوية جديدة، غير الزاوية المتعارف عليها، الزاوية التي تصورهم كائنات خارقة ولدت بهذه الصفة؟ ألا يمكن

تغيير زاوية النظر والميل بعدسة آلة التصوير قليلا لنرى أن الأقوياء لم يأتوا إلى هذه الحياة أقوياء، بل جاؤوها كما يجيئها غيرهم، غيرهم ممن أصبحوا لاحقا قطيعا ورصيفا تطأه أقدام الذين صاروا لاحقا أقوياء؟ ألم يئن للإنسان المعاصر أن يفكر بعيدا عن الميثولوجيا، عن الذين يولدون "آلهة" في جبل الأولمب، والمختارون من "أنصاف الآلهة"، ثم طبقة الثيران التي تجر المحاريت، أولئك الذين يولدون "عبدا"؟

ولكن، بالكتابة تتحقق العدالة، وفي الكتابة تستوي المعادلة.

يقول الكاتب على لسان شخصية من شخصياته القصصية: "أهرع إلى مكتبي... أصب حبر قلمي على القرطاس، أكتشف أنني أتحوّل إلى ألفاظ ناطقة تشع بالكآبة، كم أمقت الكآبة، لكنها تفرض نفسها ضيفة ثقيلة على كل ما أكتب".

في هذا المجتزأ كشف لحقيقة مؤلمة يعيشها أي كاتب صادق مع نفسه وواقعه ومع الكتابة ووظائفها، إنها حقيقة كتابة ما ينبغي كتابته، كتابة الواقع المر دون حاجة إلى "تجميله"، فالمأساة مهما جملتها زادها ذلك عتمة، لكن جمالها يكمن في وصفها كما هي، لا يمكن

للكتاب اليوم أن يُجَمَّلَ حياة- مأساة الطالب الجامعي، الذي سلب منه شبابه في التحصيل، وحرَم من حقه في العمل وبناء حياة كريمة، وسلب منه حق المواطنة والمساواة بينه وبين أقرانه الذين فتحت أمامهم بوابات الحياة على مصراعيها. حتى المتع الجسدية التي فاز بها "عبد الحق" لم تقم على طمس الشعور بالنقصان والخسران في نفسه، بل هي متع ظرفية تعمق لديه الشعور بأنه منذور فقط للأشياء الطارئة. إن ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة، وهو ما ترومه قصص هذا الكتاب، أن يعامل على أنه إنسان، وليس مجرد شيء فائض عن حاجة المجتمع، وأنه عالة عليه وعلى غيره.

لذلك تأتي الكتابة مخرصة لمداها، تشع كآبة، وبفعل الكتابة وبقوة الواقع تصبح الكتابة مشعة ومزيرة، أي أن الكآبة التي سقط ويسقط فيها المجتمع لم تعد مستورة، بل جلتها الكتابة ونزعت عنها حجاب السراب.

لقد رويت قصص محمد محضار بطريقة سلسلة، خالية من كل تكلف أسلوبى أو حتى تصنع سردي وادعاء تجريبي، لا تقول بأنها تنتمي إلى تيار محدد، وتؤكد على أنها الصيغة السردية المناسبة للوقائع والمقاصد

خلف السراج ===== محمد محضار

المزمع توصيلها إلى قراء محددين، يبحثون عن
غاية القص: المتعة والفائدة.

محمد معتصم ناقد مغربي .

الفصل الأول :

1 - خلف السراب

استيقظتُ هذا الصباح متأخراً. أزحتُ اللحاف عن جسدي بعد جهد جهيد، وقمتُ متجها نحو الحمام. فتحتُ صنبور الماء، وأخفيتُ رأسي تحته. أصابتني برودة الماء برعشة لذيذة، فشهقتُ غسالتُ، بعد ذلك، أطرافي وحلقتُ ذقني، ثم عدتُ إلى غرفتي. ارتديتُ ثيابي بثناقل، ثم نزلتُ إلى الطابق السفلي من بيتنا. كانت أُمي تقعد أريكة في الردهة وقد مدّت قدميها إلى الأمام. طبعْتُ على خدها قبلة. قالت، وهي تنظر إليّ بحنان:

- اجلس، سأقوم لأهَيِّ لك طعام الفطور.

جلستُ على الأريكة المقابلة لتلك التي كانت تجلس عليها. وضعتُ ساقاً على ساق، غمرتُ وجهي براحتي وأنا أنحني إلى الأمام. وغاب عقلي بين متاهات السنين، يجترّ المراحل... لمعتُ في ذهني ومضاتُ ذكريات أبقة.. تذكرتُ أيام الطفولة وسحرها، وسنوات الدراسة وإشراقها؛ لا شيء أبداً، أجمل من الطفولة! هذا ما أحس به دائماً وأصرح به للجميع.

جلّ لحظات طفولتي مرّت في هذا البيت. هنا، في هذه الردهة حيث أجلس الآن، لعبتُ كثيراً، أنا وأختي وأخي وسليمة، ابنة عمي، التي لم يكن بيتنا

يخلو من إشراقة محياها الجميل. هنا، في هذا البيت،
ذقتُ مرارة المعاناة والألم؛ فمنذ سنوات عمري الأولى
كُتب عليّ أن أكون عليل الصحة، ضعيف الجسم. كان
الطبيب كثيراً ما يزورنا ليُعوّدي؛ وقد كُلف هذا والدي
مبالغ طائلة.. كانت أُمي المسكينة تسهر معي طوال
الليل عندما يداهمني الألم وتشتد عليّ النوبات. كنتُ
ألمح الدموع تنهمر من حدقتيها رغماً عنها، وهي
تغمرنني بنظراتها الدافئة، وشفاتها تتحركان بالدعاء لي.

توقفتُ بي خواطري فجأة، وأنا أسمع قطعة
صينية القهوة توضع على المنضدة. صبّت أُمي فنجان
قهوة، وقدمت لي قطعة خبز مطايية بالزبدة والمربي.
ابتسمتُ، ثم قالت:

- هيا، كل يا صغيري..

هي تعاملني دائماً هكذا، تدلّني باستمرار وتخصّني
بحبها أكثر من أخويّ.

تناولت طعام إفطاري بنهم شديد، قالت أُمي:

- هل تعلم أن الحاجة زينب سألت عنك؟

- ومن تكون الحاجة زينب؟

زوجة الحاج حكيم، المقاول.. لقد زارتنا مرة في البيت. إنني ألتقي بها مرارا في الحمام؛ لها ابنتان، سامية وحليمة، وتريدك أن تراجع معهما وتعطيتهما دروس تقوية.. على الأقل، تشغل وقتك وتحصل على بعض المال.. خذ، هذا هو العنوان.

أمسكتُ بالورقة التي قدّمت لي أمي، ألقيتُ نظرة على مضمونها، ثم قلتُ:

- كما تريد يا سيدتي، سأذهب إليهم.

غادرتُ البيت سرت على إفريز الشارع بخطى متخاذلة.

لا أدري ماذا يحدث داخلي هذه الأيام.. كل يوم أحس بانفصام كبير بيني وبين واقعي. لم أعد قادرا على مواصلة الرحلة تحت رحمة هذه الظروف القاسية. بالأمس، كانت الدراسة هي كل همّي. كانت حياتي ووجودي؛ لكن اليوم الأمور انعكست بعد أن حصلت على الشهادة وأصبحت مجازا معطلا، أتكع بين الأزقة وأنفق وقتي بين البيت والمقاهي. ولعل ما يزيد الطين بلة أنني العاقل الوحيد في البيت وأنني اليد السفلى الوحيدة؛ فأخي الأصغر سليمان اشتغل

بالباكالوريا في أحد البنوك، وأختي نادية حذت حذوه وأصبحت معلمة، هي الأخرى، بالباكالوريا.

أما أنا، بكر الأسرة، فقد أمسكتُ بمشعل البطالة منذ اللحظة الأولى التي سعدتُ فيها بتسلم شهادة الإجازة من يد عميد الكلية.

وأصبح كل همّي أن أجد عملا، أيّ عمل يشغل وقتي ويكفيني شر مد اليد لأبي وأخوي لتسلم مصروفي اليومي. كنتُ قد بلغتُ شارع علال الفاسي، حين أمسكت عن التفكير.

نظرتُ حولي.. كان أطفال يلعبون على الرصيف والمحلات التجارية فاتحة أبوابها، وبعض المارة يسرون هنا وهناك.

واصلتُ المسير على امتداد الشارع حتى شارفتُ على البناءات الجديدة، التي كان أكثرها عبارة عن فيلات أنيقة، يتجلى عبر واجهتها "الذوق الرفيع" لأصحابها ويُسر الحال الذي ينعمون به.

ألقيتُ نظرة على الورقة التي أعطتني أمي، ثم استدرتُ وسرتُ في زقاق فرعي، وشرعتُ أقرأ أرقام الفيلات الممتدة على جانبيه. وأخيرا، وجدتُ بغيتي. كانت فيلا فاخرة، ذات واجهة متميزة. مددتُ يدي

النحيفة أضغط على جرس الباب؛ ومرّت هنيهة قبل أن أسمع خشخشة وألمح من بين انفراجات الباب الخشبي فتاة ضامرة العود، فتحت لي، واستنتجت من خلال الميداعة الزرقاء التي ترتدي أنها الخادمة؛ قالت:

- هل من خدمة أقدمها لك، يا سيدي؟

ابتسمت وقلتُ:

أريد أن أرى الحاجة زينب، قولي لها عبد الحق، ابن السي العربي، مفتش الشرطة ولالة صفية، صديقتك.

- تفضّل بالدخول، يا سيدي... سأخبر لالة بمقدمك.

سرتُ خلفها، مجتازا ممرا انتشرت على جانبيه أحواض طافحة بالزهور واصطففت شجيرات صغيرة بدأت أغصانها تمتد إلى أعلى، قبل أن نصعد بضع درجات، ثم نجتاز بابا أفضى بنا إلى دهليز، ينفتح على ردهة واسعة غطت بلاطها سجادة تركية ثمينة انتظمت فوقها أرائك جلدية فاخرة، تتوسطها منضدة من الأبنوس. على بُعد خطوات من الأرائك، إلى اليمين، انتصب صوان ضخم بزجاج كاشف نُضدت على رفوفه أوانٍ فضية لماعة وقطع مختلفة الأحجام من الودع.

على الحائط المقابل لباب الدهليز، علقت لوحة زيتية
ضمّت أفراد الأسرة. قالت الخادمة:

- تفضّل، اجلس.. سأذهب لأخبر لالة.

جلستُ مضطرباً، وأنا زائغ النظرات، أحملق
حولي.. فجأة، أطلّت من الباب الثاني للردهة امرأة
ممتلئة الجسم، ناضجة الأنوثة، في حدود الأربعين من
عمرها، تمشي بخطى منتظمة. قمتُ من مكاني، وأنا
مطرق رأسي وتقدمتُ نحوها بخجل، مدّت إليّ يدها
اللينة، قائلة:

أنت ابن لالة صفية.. مرحبا بك في بيتك،
تفضّل، اجلس.

جلستُ وجلستُ قبالي، واطعة ساقا على ساق.
كانت ترتدي فستانا كشف عن ساعديها الأبيضين
وجيدها العاجي. كان شعاع ساحر يطل من عينيها،
بالرغم من أنها ناهزت الأربعين، ووجهها ينبض
بالحياة، مثل شابة في العشرين.

قالت:

أمس، عندما حدّثتني أمك عنك، قلت لن أجد
أحسن من عبد الحق لإعطاء دروس التقوية لسامية
وحليمة.

أنا رهن إشارتك، يا سيدتي.

بالمناسبة، في أيّ شعبة أخذت الإجازة.

شعبة الأدب العربي، يا سيدتي.

- ولم تشتغل بعد؟..
- لا، يا سيدتي، لم أشتغل بعد.. ومؤخرا، توصلتُ بورقة
الإعفاء من الخدمة المدنية، وأنا أفكر هذه السنة في
اجتياز مباريات الالتحاق بمراكز التكوين التابعة
لوزارة التربية الوطنية علّني أنجح في إحداها.
- أتمنى لك ذلك من كل قلبي.

ألقت نظرة على ساعتها اليدوية، ثم صفقت
بيدها؛ فأقبلت الخادمة، ذات الميداعة الزرقاء، مهرولة.
قالت الحاجة، مركزة نظراتها عليّ:

- ماذا تشرب، قهوة، شايا، أم عصيرا؟
 - قهوة، إذا أمكن.
 - لم يبق إلا قليل من الوقت وتحضر سامية وحليمة.
- ثم تابعت:

- أنت أستاذنا منذ اللحظة، فهل أنت مستعد؟

رددتُ، وأنا أبتلع ريقِي:

- طبعاً، مستعد.. وإلا لماذا أنا هنا؟

وخضت مع الفتاتين في حديث طويل. كانت
كلاهما شعلة من الذكاء، تناقشان بمنطق مدهش،
خاصة سامية، التي مضت تتحدث بطلاقة قلّ نظيرها
عن الفلسفة الوجودية وأقطابها، أمثال كامي وسارتر
ودي بوفوار. أدركتُ، للتو، سعة اطلاعها ورحابة
أفكارها. قلت بيني وبين نفسي "أبناء هذا الوسط هم
الذين يتعلمون ويحققون طموحاتهم.. فلا مشاكل تشغلهم
ولا هموم تشوش بالهم".

في الواحدة، جاء "الحاجّ" وابنه، واجتمعنا حول
مائدة الأكل، الذي كان شهياً ومتعدد الأشكال والألوان.
قال لي الحاجّ:

- كلّ يا ابني ولا تخجل، تصرف كأنك في بيتكم.

رددت:

- الله يكثر خيركم، يا سيدي.

بعد الغداء، شربنا الشاي في الصالون، ودردشنا
بما فيه الكفاية. اتفقتُ مع سامية وحليمة على الحضور

ثلاث مرات في الأسبوع، بعد السادسة مساءً، ثم قمتُ
لأغادر.

شيّعتني سامية حتى باب الفيلا، وشدّت على
يدي مودعة، أحسست بليوننة كفها ودفئها.. انتابتني
نشوة غريبة، وتحركت مشاعري ورحتُ أحلق في
وجهها الأبيض الطري، ودغدغ شذى عطرها أنفاسي،
وأصابني الذهول. لم أفق من شرودي إلا على صوتها
العذب وهي تقول:

- إلى اللقاء.. ولا تنسَ أن تحضر لي معك الكتاب الذي
وعدتني به.
- أه.. طبعاً.. طبعاً، سأحضره، إلى اللقاء.

ودارت على عقبيها عائدة إلى داخل البيت،
وسرتُ أنا بخطى متعثرة. كانت شمس الربيع تنثر
أشعتها الدافئة ورياح شمالية تهبّ منعشة. مضيتُ أجرّ
قدمي في تخاذل. انتابني شعورٌ غريبٌ بتفاهة الحياة
وعبثها وغموضها.

بدا لي أن أدنى بصيص نور يكشف أمامي
طريق الخلاص ويهديني سواء السبيل عديم الوجود.
انتابتني رغبةٌ عارمةٌ في الإبحار نحو عالم الحقيقة، هذا
العالم الذي لا أكاد أحس بأنني بدأت أستشرفه حتى

تضطرب أمامي الصورة ويضيع كل شيء ولا يبقى لي إلا العدم. وتواردت عليّ الأفكار والخواطر؛ أحسست بدماعي يكاد ينفجر. "أعترف بأنني لم أعد قادراً على مسايرة هذه الرتبة. صار الوجود بالنسبة إليّ شيئاً غامضاً تعذبني ألغازه وطلاسيمه، والليل يطول عليّ ويتحول إلى أتون محرق تغلي عليه مراجل نفسي؛ والنهار يستحيل إلى ضياع ضارب في الغور، تتبدّد عند قدميه كل الأحلام وتذبل الورود. الزهور يضيع رحيقها، واللحن الجميل يشوبه النشاز، وأغنية الحب تعتورها الركافة، ولا أدري من أين وإلى أين أسير.. حياتي خريف أزليّ يطفح بالكآبة.. أريد وأريد، لكنّ كيف؟!"

هذا السؤال العسير يشجّ رأسي باستمرار، ويرمي بي إلى صقيع الأوهام. يلفعني ببرد قارس، يُحول أوقاتي إلى حلقات متصلة من الحيرة، ويزرع الوجل في نفسي، يحجب عني الرؤية، ويصبح كل شيء أمامي سراباً يتراقص عند الأفق.

- توقفت دقيقة أمام "مقهى مرحبا"، أسترجع أنفاسي. ثم انحدرتُ عبر شارع مراکش وتوقفت، من جديد، قرب قصر البلدية. جلّتُ بنظراتي في المكان، ولما أبصرتُ بائع السجائر بالتقسيط ناديتُ عليه وابتعتُ منه واحدة،

أشعلتها بارتباك. جلستُ على أحد مقاعد الحديقة المجاورة لقصر البلدية وأخذتُ أدخن بانتشاء، غارقا في تأمل دوائر الدخان المتصاعد في الفضاء. تهادى إلى سمعي، فجأة، زعيقٌ غريبٌ. التفتُ لا شعوريا نحو مصدره، فإذا بي أرى معتوها نصفَ عار يفتح حنفية الماء الخاصة بالحديقة وهو يمارس طقوسا مثيرة. كان يجلس وركبته إلى الأرض وكأنه يصلي ويداه تخططان التراب بماء الحنفية المناسب حتى يصبح وحلا، ثم يلطخ به صدره المزغب ووجهه الأسمر الرقيق، وهو يصرخ.. رحتُ أصدق به. فكرتُ: لا يوجد في هذه الدنيا إلا ما يذهب بعقل الإنسان؛ تناقضاتها فوق التحمل.

قمتُ من مكاني، بعدما انتهيتُ من التدخين، وظل الأحمق يمارس طقوسه. تابعتُ السير والإرهاق يطبق عليّ.

عندما وصلتُ إلى المنزل، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، دلفتُ إلى الداخل.

كانت أمي تجلس في الردهة منهمة في حياكة "تريكو". طبعْتُ على خدها قبلة، ثم صعدتُ إلى غرفتي دون أن أمنحها الفرصة لتسألني عن زيارتي لدار الحاج حكيم. خلعتُ حذائي وجوربي، ثم بعدهما باقي ملبسي. ارتديتُ "الفوقية" واستلقيتُ على السرير، وسرعان ما

غبتُ في إغفاءة لذيذة عندما فتحتُ عيني، كانت الشمس قد تدرجتُ نحو الأفق، غارقة في حمرة باهتة وانعكست أشعتها الأرجوانية عبر زجاج النافذة لتسقط على جدار الغرفة. انسللتُ من مرقدي قائماً دخلتُ الحمام، اغتسلتُ، ثم عدتُ إلى غرفتي ارتديتُ ثيابي، اقتربتُ من المرأة. لاح لي طيفي منعكسا على أديمها. ما زلتُ، على كل حال، أحتفظ بوسامتي، بالرغم من أن شعر رأسي قد بدأ يخف من الأمام. تركتُ المرأة، ثم نزلتُ إلى الطابق السفلي. كان كل أفراد الأسرة يجلسون في الردهة، مجتمعين حول صينية الشاي. ألقيتُ عليهم التحية وجلستُ. سألني أبي عن الزيارة. حدّثتهم عنها باقتضاب، قالت أُمي:

- لالة زينب امرأة ونصف.

قلتُ:

- طبعاً، امرأة ونصف، ما دامت شكاره زوجها تلد ذهباً.

ضحك أبي، وقال أخي سليمان:

- للحاج حكيم رصيد ضخم عندنا في البنك ويملك عقارات عديدة في المدينة.

قلتُ بلهجة تطفح بالمرارة:

- المشكلة، على كل حال، مشكلة أمثالي الذين يعيشون
عالة على الآخرين.. قاطعتني أمي:
- غدا تتوظف وتصبح سيد الرجال!

ألقيت نظرة على ساعتني. كانت عقاربها تشير إلى الساعة وخمس دقائق. تركتهم وخرجت. التجوال في المساء يعجبني كثيرا. وجدتني بين السابلة المتدفقتين في مختلف الاتجاهات، غارقا مرة أخرى في بحر شرودي. كانت جيوش الظلام قد طردت آخر خيوط الضوء، وسطع القمر بدرا كاملا، ينثر أشعته الطرية ملء الربوع. ابتعت سيجارة وأشعلتها، وشرعت أنفث دخانها وأنا أواصل سيري على غير هدى. "الهواجس العملاقة تركض في سراييني، تبطش بكريات الأمل في دمي. النظرات المجهرية تُعريني وتكشف حقيقة ما يدور في خلدي.

كم هي قاسية الظروف، كم هو مُغال في سطوته القدر؛ يأبيان إلا أن يدخلوا مثل اللحمة بين السداة، ويفرقا بين الإنسان وروحه، ويعصفا بثمرات عمره، ويسلطا عليه شرر الزمان يحرق جماليته. أحسست بأنفاسي تختنق في صدري، وبالدموع تترقرق في عيني، وبقدمي تتخاذلان.. واقع الهزيمة المرة يُقرأ، بوضوح، على سحتني.

ولجت مقهى باريس. اخترت طاولة منعزلة في ركن قصي. طلبت كوب عصير، ومضيت أرتشف جرعاته في هدوء. وفي التاسعة ليلا، عدت إلى البيت.

الفصل الثاني :

كانت علاقتي بأبي تشهد شدا وجذبا بين الفينة والأخرى؛ فبالرغم من الحذب الذي كان يشملني به، فقد كانت بيننا أزمة أفكار. كان له عالمه الخاص، الذي يتأثر بظروف عمله واحتكاكه باللصوص والقتلة والمجرمين؛ فهو دائما يقع في شرك التداخل بين عمله وبين حياته الخاصة.. فتراه يمارس لعبة الإسقاطات على كل أفراد أسرته، مستحضرا الهاجس الأمني بقوة في تعامله معنا.

خلال دراستي الجامعية، كانت نصيحته الأزلية لي: "إياك والإضرابات! ابتعد عن اتحاد الطلاب.. لا شأن لك بالسياسة والأحزاب! اسمع يا ولدي، "الوقت صعبة".. هناك تعليمات لتقديم كل المشاغبين للمحاكمة. كن رجلا! لا تنس أن والدك رجل أمن محترم".

كنت أحترم رأيه، وأشفق عليه؛ فهو يعاني ازدواجية في علاقته مع أسرته وتعامله معهم. كان هاجس الخوف حاضرا لديه بقوة، أيضا، بحكم عمله في الشرطة القضائية واصطداماته المتكررة مع أفراد العصابات وتجار الممنوعات. وانعكس هذا الهاجس سلبا على حياته الشخصية؛ فهو يحاول أن يوفر الحماية

لأسرته، وفي الوقت نفسه يؤدي واجبه المهني على أحسن وجه.

ولعل الشيء الذي كنت أقدره فيه أكثر وأثمنه هو نقاء سريرته وتجنبه الرشوة والمرتشين؛ ما جعل وضعه الاجتماعي يظل متواضعا، عكس بعض زملائه ممن فضّلوا بيع ضمائرهم.. بالرغم من نصائح والدي الثمينة، فقد كنتُ خلال سنوات الدراسة الجامعية أشارك في كل أنشطة اتحاد الطلاب ولا تفوتني تظاهرة أو وقفة احتجاجية دون أن أسهم فيها بفاعلية، غيرَ أبه بالتضييق والقمع الممنهجين الذين كانا يسودان، سواء داخل الحرم الجامعي أو خارجه.. وطبعاً، فقد نلتُ نصيبي من هراوات الأمن وعشتُ حمى الصراعات بين مختلف التيارات السياسية ودافعتُ عن قناعاتي دون خوف أو وجل. كانت تلك أسراراً خاصة بي؛ حرصتُ كل الحرص على إخفائها عن والدي، المهووس باستتباب الأمن والعاشق لتنفيذ "التعليمات".

عندما أنهيتُ دراستي، اقترح عليّ ولوج سلك الشرطة؛ لكنني رفضتُ بقوة. قلتُ له: "أنا لا أجد نفسي في هذه المهنة، لديّ قناعاتي التي تدفعني إلى البحث عن مهنة تتوافق مع مبادئ الخاصة!". وكان من

الطبيعي أن يقع التنافر ويكبر الخلاف، بالرغم من ذلك الهوس الوجداني المتبادل بيننا.

إحساسٌ غريبٌ أن تحبّ بجنون إنسانا يخالفك الرأي، وتحرص على أن تُسعدّه وتمنحه الفرح دون حدود.

كان والدي رجلا شريفا يمارس عمله بتفانٍ، ويحرص على ألا يزعجنا بالمشاكل التي تعترضه؛ وأقلها ضغط العمل ورعونة بعض المسؤولين. كنا نحس به وندعمه، وكانت والدتي دائما تقول: "والدكم طينة نادرة في هذا الزمن، يحبكم بجنون. لذا، حرص على أن تأكلوا الحلال الطيّب. لهذا، لم يخضع لإغراءات المهنة وتجنّب الشبهات؛ السّي العربي لا نظير له يا أولادي!"..

بعد سنة من العطالة، كنت أحسّ بوالدي يتألم لحالي في صمت ويدعمني، ماديا ومعنويا، ويحاول دائما تجنب إحراجي.

لم يعد يثير معي موضوع ولوج سلك الشرطة؛ أما أنا فكنْتُ أحاول التكيف مع واقعي وممارسة حياتي بهدوء وانتظار ما ستحمّله الأيام القابلة من جديد.. وكان

ظهور سامية الفجائي بطعم المنجاة ولذة الكمثرى؛
ظهور جعلني أحس بأنّ لي قلبا ينبض ومشاعرَ تتحرك.

الحب يأتي دون استئذان، ويغير أموراً كثيرة في
حياة الإنسان. الحب قيمة إنسانية رفيعة ترتبط بأبعادها
بمدى رغبتنا نحن البشر في لمّ شتات أنفسنا وتجاوز
محننا الكثيرة والتغلب على ظلم الطبيعة وجور الحياة.
الحب... ما أجملها من لفظة يرتاح إليها القلب ويأنس
بها الفؤاد! فيها سكينة ودفء، وخلف فضائها اللغوي
والمضموني مشاتلُ خصبة من زهر الفرح وورد
النعيم. وأنت، حين تدرك ذلك تحس بأنك قريب من
الحقيقة، حقيقة الحياة والوجود؛ تحسّ بأنك تتخلص من
أدران نفسك وذمامة واقعك. الحب.. يا لفاعلية هذه
الكلمة وسحرها! في نطقها إيقاع راقص وسمفونية
عذبة. فطوبى لمن يعتنق مذهب الحب، ويتشبع بروح
ناموسه، والخدلان لأعدائه ممن ينكرون وجوده
ويؤمنون بكل رديف للغواء والحقد والشر..

هكذا، أحسست وهكذا فكرت؛ لكن هل لسامية
الرأي نفسه؟ كان أخي سليمان قد اختار ولوج سوق
الشغل مبكراً، بعد حصوله على شهادة الباكلوريا.
التحق بالعمل في إحدى الوكالات البنكية، بتدخل من
أحد معارف والدي. كان سليمان إنساناً مرحاً، يعيش

حياته بعفوية كبيرة. وكان مهووسا بممارسة رياضة فنون الحرب، وقد استطاع تحقيق ألقاب على الصعيدين المحلي والوطني؛ كنا نلقبه بـ"المحارب"! كانت علاقتي به حميمة إلى درجة لا تصدق، فقد عشنا طفولتنا معا وكنا نمارس شغبنا الجميل في الشارع والبيت ونحفظ أسرار بعضنا البعض.. عندما حدّثته في موضوع سامية، ابتسم وقال: "أتمنى أن تكون من نصيبك"!.

الفصل الثالث :

الشمس قرصٌ أرجوانيُّ يتلأأ في كبد السماء،
والجو صحوٌ هادئٌ. جلستُ في باحة مقهى الشباب
وحيدا. أمامي كوب قهوة سوداء، وفي يدي تحترق لفافة
تبغ. المقهى تضيق بالرواد، فالיום يوم عطلة، والناس
لا تجد ما تملأ به أوقات فراغها إلا جلسات المقاهي
والثرثرة العقيمة والنميمة في بعضهم البعض. اقترب
من مكاني شاب في حدود الثلاثين، ووضع كرسيه
بمحاذاتي ثم جلس وطلب قهوة. قال وهو ينظر إليّ:

- المقهى مختنقة بالرواد..

قلتُ، وبصري شاخص إلى بعيد:

- الفراغ قاتل.. وليس أمام الناس إلا المقاهي ملاذا من
شروره.

قدّم لي سيجارة، قبلتها منه شاكرا.

- رأيتُك في المقهى مرة أو مرتين من قبل، لا أذكر..
يبدو أنك رجل تعليم؟

قلتُ:

- أنا مجاز معطل..

قال:

- لقد كثر، في السنوات الأخيرة، المتعلمون المعطلون.. الحكومة لم تعد قادرة على توظيفهم، لأسباب اقتصادية على ما يبدو.

ثم تابع، قائلا بلهجة متذمرة:

- أنا معلم مغلوب على أمري، وأنت تعلم أن المعلم محتقر، والجميع ينظر إليه بنصف طرف؛ لأنه لا حول ولا قوة له.. ولا يقبض رشوة مثل موظفي بعض القطاعات الأخرى.. وتظل حوالتهم العجفاء، التي يقطع منها أحيانا ليعطي للمدير والمفتش، المنبع الوحيد لرزقه.

قلتُ معلقاً:

- لكل جحيمة، يا صديقي..

ودون أن يهتم لتعليقي، تابع بصوت منفعل:

- تصور أن المدير يطلب مني إحضار علبة سجائر كلما قصدتُ مكتبه لقضاء مأرب إداري! أما المفتش؛ فقصته، على كل حال، ذات ذيول.. تصور أنه طلب مني، في آخر زيارة تفتيشية، أن "أسكره" على حسابي حتى أحصل على الامتياز.. ولم أجد بدا من الرضوخ.

سكت صاحبنا برهة ليسترجع أنفاسه، ثم استأنف

كلامه:

- دنيا مُخرَبة بحق، لا معنى لها. كم من مرة حاولت أن أفهم؛ لكن دون جدوى.. كنت أجد نفسي وسط الطريق وقد تقطع بي الحبل..

قلتُ، وعيناى تتأملان وجهه الأسمر النحيف:

- الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا ليفهم؛ بل ليأكل ويشرب ويتناسل ويعيش حتى ينتهي، وكفى بالله وكيلًا.

ضحك، ورشف من فجاجه جرعة ثم قال:

- معك حق.. كلامك صحيح. لا وقت لنا لكي نفهم، وحتى حينما نفهم نكون على حافة النهاية.

قلت:

- ليس أمام المرء أحيانًا أحسن من اتباع سياسة اللاإكتراث تجاه صروف الحياة وتقلباتها، وإلا جُنّ.

تواصل حديثنا على هذه الوتيرة حتى شعرتُ بالملل؛ فودعته، وتركت المقهى قاصدا البيت. حاولتُ أن أقرأ قليلا؛ لكنني لم أستطع. استلقيتُ على الفراش، شخصتُ بنظراتي إلى سقف الغرفة، وحلقتُ بي أفكارى إلى بعيد:

"أسبوع كامل إنقضى علي وأنا أرتاد دار الحاج حكيم، وأجلس إلى ابنتيه سامية وحليمة، ثم أستمع إلى

كلتيهما تعبّران عن ذاتيهما وتكشfan عن ذكائهما الفائق. أكتفي بالتوجيه وكلمات الإطراء. وأظللّ أحّدق في سامية، التي كانت تتقنن في ارتداء ملابس تكشف عن مفاتنها.. كانت عيناها الزرقاوان بحرا هائجا أغرق في أعماقه باستمرار، ووجنتاها تفاحتين تخلب لبي حمرتهما الشفقية، ساعداها ناصعي البياض، مرآة تعكس سحرا سرمديا. كانت شفتاها القرمزيتان تلمعان ببريق النشوة البكر، ونهداها المنحسران بين طيات ثوبها الشفاف تنطقان بلغة العشق. كانت هالة من الفتنة تحيط بمحياها العذب.. وأحاول، قدر المستطاع، أن أحتفظ برزانتني، وأضغط على مشاعري وعواطفي؛ لكن كيف وسامية جميلة جمالا يفوق التصور؟ وفوق كل هذا، فهي ابنة رجل له مكانة اجتماعية مرموقة. كنت وأنا أتطلع إلى سامية أتطلع إلى طبقة مجتمعية تعلو طبقتي، وأهفو إلى ممارسة ما سموه لعبة القفز بين الطبقات؛ لعبة يشهد التاريخ أن جل ممارسيها سقطوا في دائرة الفشل.. إن سامية ليست فردا أو ذاتا، بل طبقة.. هذا ما أحس به، ولكن باسم أيّ قانون تحرم عليّ سامية؟ فعندما خلقنا الله كنا سواء...".

قطع عليّ حبل تفكيرِي صوت مزلاج الباب
وهو يُفتح. رفعتُ رأسي لأجد أختي تتقدم نحوي بخطو
خجول؛ قالت وقد اقتربت مني:

- هل كنت نائماً؟
- لا.. كنت فقط سارحاً ببالي.
- جلست على حافة السرير، وعيناها تطفحان بنشوة
غريبة وقالت برنة خجولة:
- أريد أن أكلّمك في موضوع مهمّ بالنسبة إليّ.
- تفضلي إذن، أنا أسمعك...
- تلكأت طويلاً.. واحمرّت وجنتاها قبل أن تقول،
متلعثمة:
- منذ شهرين، تعرفت على شاب.. قدّمته لي إحدى
صديقاتي، والواقع أننا تفاهمنا.. وهو يريد أن يتقدم
لطلب يدي هذه الأيام.
- قلتُ وأنا أبتسم:
- وهل في هذا ما يخجل؟! ليتقدم فتاك وستجدينني في
صفاك.
- افترّ ثغرها عن ابتسامة عذبة وقالت:

- لقد طابْتُ منه أن ياتقيك أولاً، فهل أنت مستعد لتلبية رغبتى هذه؟
- طبعاً، أنا مستعد.. حدّدي الوقت والمكان، وستجدينني طوع الإرادة.
- لم أكد أتمّ عباراتي حتى طوقت عنقي وأسرعتُ تطبع على وجهي قبلات متتالية وهي تلهج:
- كنت أعلم أنك ستوافق.. إنك الوحيد الذي يفهمني في هذا البيت.
- نزلنا معاً إلى الطابق السفلي؛ تغدّينا صحبة باقي أفراد الأسرة في الصالون، ثم شربنا الشاي. عدتُ إلى غرفتي لأخلد لقلولة. عندما استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة. دخلتُ الحمام، فاغتسلتُ، وحلقتُ ذقني. عدتُ إلى غرفتي وارتيديتُ بدلتى الجديدة.. ثم خرجتُ قاصداً بيت الحاج حكيم.
- ضغطتُ على زر الجرس كالعادة، فتحت لي الخادمة الباب، ثم قادتني إلى الصالون. وجاءت الحاجة زينب تخطر في ثوب فضفاض من المخمل الأخضر وجلست بمواجهتي وقالت:
- كيف حالك؟
- بخير، يا سيدتي.

أَلَقْتُ نَظْرَةً عَلَى سَاعَتِهَا الْيَدَوِيَّةِ، ثُمَّ قَالَتْ:

أُظِنُّ أَنَّ سَامِيَةَ وَحَلِيمَةَ تَوْشَكَانَ عَلَى الْعُودَةِ.. فَقَدْ خَرَجْنَا مِنْذُ الزَّوَالِ صَحْبَةَ رَشِيدٍ، ابْنِ سَيِّدِي مُوسَى، مُوزِعَ مَوَادِّ الْبِنَاءِ فِي الْمَدِينَةِ؛ لَا شَكَّ فِي أَنَّكَ تَعْرِفُهُ، لَهُ مَتَاجِرٌ وَمُسْتَوْدَعَاتٌ فِي عِدَدٍ مِنَ الْمَدَنِ الْمَغْرِبِيَّةِ.

لَمْ تَكُنْ تَكْمِلُ كَلَامَهَا حَتَّى تَنْتَاهِيَ إِلَى أَسْمَاعِنَا صَوْتِ ضَحِكَاتٍ مُنْبَعِثَةٍ مِنَ الْبَهْوِ. عُلِقَتِ السَّيِّدَةُ:

- لَقَدْ وَصَلُوا .

كَانَتْ سَامِيَةُ تَبْدُو مَنْسُجَةً مَعَ رَشِيدٍ؛ أَحْسَسْتُ بِنَارِ الْغِيْرَةِ تَشْتَعِلُ دَاخِلِي. مَدَّ رَشِيدٌ يَدَهُ مَحِييَا، وَحَذَتْ حَذْوَهُ سَامِيَةَ وَحَلِيمَةَ. قَالَتْ الْحَاجَةُ زَيْنَبُ وَهِيَ تَقْدِّمُنِي لِرَشِيدٍ:

- عَبْدُ الْحَقِّ، ابْنُ صَدِيقَتِي السَّيِّدَةِ نَعِيمَةَ، وَالِدُهُ هُوَ السِّي سَلِيمَانُ، مِفْتَشُ الشَّرْطَةِ الْمَعْرُوفُ، يَقْدِّمُ دُرُوسَ الدِّعْمِ لِكُلِّ مَنْ سَامِيَةَ وَحَلِيمَةَ.

رَدَّ رَشِيدٌ وَهُوَ يَبْتَسِمُ:

- تَشْرَفْنَا.

ضَغَطْتُ عَلَى أَحَاسِيْسِ الدَّوْنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُضْطَرِّبُ دَاخِلِي، وَشَعَرْتُ بِعُمُقِ الْمَأسَاءِ وَغُورِهَا.

فكرتُ: "لا شك في أن رشيد همس في أذن سامية أحلى الكلمات، ولا شك في أنه خصرها وهما يتجولان معا في الضواحي، بين الأشجار والزهور.. وربما أسندها إلى شجرة وقبلها وهو يجول بأنامله بين ثايا جسدها الأبيض الغضّ.. وما من شك في أنها انتشت كثيرا وأغمضت عينيها، مثلما تفعل العذارى..."

سألتني سامية، وأنا غارق في تفكيري.

- أين غبت، يا أستاذ؟ تبدو ساهما اليوم!
- لا، لا.. طبعاً.. كنتُ فقط أفكر في ما سنراجعهُ اليوم.
- لقد وعدتني بمراجعة مادة الفلسفة.. وبالمناسبة، هل أحضرت لي كتاب "مدخل إلى الفلسفة اليونانية"؟

أسرعتُ أقدم لها الكتاب وأنا أقول:

- وهل أنسى؟.. تفضّلي.

جاءت الخادمة بالقهوة، وشربنا جميعاً، ثم استأذن رشيد وقالت له الحاجة: "سلم لي على أمك"..

وانسحبت الحاجة، وبدأت المراجعة مع سامية وحليمة.

انسلخ من الوقت ردحٌ، وبدا علينا نحن الثلاثة شيءٌ من الإرهاق.. وقامت سامية، فأشعلت التلفزيون، قدّموا إشهار سيارة "ريكاطا".. قالت حليلة:

- سيارة رشيد مثل هذه.

وتابعت ضاحكة:

- ريكاطا بليسم.

وقدّموا أيضا إشهار "رونو 18" و"أونو"، ثم قدموا نشرة الأخبار؛ قالوا فيها إن الحرب مستمرة بين العراق وبين إيران. وقالوا إن السيارات المغمومة تهز بيروت، وإن روسيا تستعمل الأسلحة الكيماوية ضد الثوار الأفغان. ثم قالوا إن الدنيا عندنا بخير، والطقس سيكون جميلا يوم غد.. مباشرة بعد ذلك، شرعوا في عرض مسلسل مصري اسمه "الناس معادن". وجاءت الخادمة تدعونا إلى العشاء.

كان العشاء زاخرا بالوجبات اللذيذة والصحية في آن. لم تكن شهيتي مفتوحة. وبالرغم من ذلك، تحاملتُ على نفسي واستمررتُ في الأكل حتى لا أثير ريبتهم. كانوا سعداء، وكلماتهم المتبادلة تنم عن ذلك. كنتُ أنا وسطهم غريبا، أخطب في بحر التناقض. انتهينا من العشاء، واجتمعنا من جديد في الصالون، وشربنا

الشاي. استأذنتُ في الذهاب، وقامت صحتي سامية. أمام الباب، وقفتُ تنتظر إليّ مبتسمة، منتظرة أن أهمس لها كالعادة بكلمة "إلى اللقاء"؛ لكنني تجرأت وضممت كفها بين راحتي، وقلتُ بصوت خجول:

- أنت جميلة.

ردّت ضاحكة:

- حقا؟..

- بل ساحرة وفاتنة.

قالت بنبرة تتمّ عن الشعور بالرضا:

- رشيد قال لي الكلام نفسه.

- رشيد!

- نعم، رشيد.. إنه شاب لطيف، وقد حدثته عنك بما فيه الكفاية.

- حدثته عني.. وماذا قال؟

- لم يقل شيئا، اكتفى فقط بالابتسام..

وبجراحة لم أعرف كيف وانتني، جذبّتها نحوي واعتصرّتها بين ذراعيّ، وطبعْتُ على شفّتيها النديتين قبلة محمومة، وأنا أرتعد.. لم تقاوم أو تُبد صدودا.. لكنها أزالَتْ يدي من حول خصرها بلطف وقالت:

- تصبح على خير.

ثم أغلقت الباب وقفلت عائدة إلى الداخل. انطلقت أشقّ طريقي بخطى متذبذبة. كان الظلام شديداً، وأضواء المصابيح العمومية تبدو باهتة. قفزت إلى ذهني صورة سامية، وتمنيتُ لو أن تلك القُبلَة التي أخذت منها طالت.. وجاءت صورة رشيد على حين غرة، تطرق بالي دون استئذان.

إنه فتى سامية المفضل، ويبدو أن أمها أيضاً معجبة به وتشجع على قيام علاقة بينه وبين ابنتها. ولكنّ مالي أنا وما لسامية ورشيد؟ ولماذا أجهد ذهني بالتفكير فيها بهذه الكيفية فيما هما ينعمان براحة البال؟ إن سامية ورشيدا إذا "تحابا" فستكون صفقة "حبهما" أكثر ربحاً لكليهما؛ فهما ينتميان إلى الطبقة ذاتها، ويمتلكان الثقافة الاجتماعية نفسها. مثيلات سامية ممن ينتمين إلى الطبقة الراقية يفضلن رجالاً من الطبقة ذاتها يكون بمثابة "دفة"؛ وبعدها، يتمتعن بحياتهن الخصوصية كما يردن، وليس مهماً مع من.

قد تكون فكرتي مغلفة بالسداجة أو خاطئة، وربما كان سببها الاحساس الكبير بالدونية، لكن ما باليد حيلة فأنا بشر ولست قادراً على التحكم في انفعالاتي وتوترتي، حتماً هي عُصارة الألم، وقمة الشعور بغياب

القابلية تستوطن كياني وتستشري في شراييني، لتعلن
عن نفسها إضطراباً وإرتياعاً يسرح في ثنايا وجهي،
ويطرد ذلك التلألؤ الجميل الذي أحسست به في دواخلي
حين قبلت سامية ولو بغير رغبة منها.

كان هذياني يزداد وأنا أسير بخطى ضائعة دون
هدف، و تنامي لدي شعور قوي بالغبن ووجدتني دون
وعي أكلم نفسي وأخاطب الفراغ" يازمن اليباب
والاندحار كم شمساً غابت في عمق قرارك؟ وكم بدرأً
ابتلعتة حلقة لياليك القاتمة؟.وليس اليوم بيني وبينك إلا
نفس مهزوزة وعبرات ضائعة من مقلتي الشاحبتين لن
أقول شيئاً سأكتفي بابتلاع غصتي و انتظار المجهول".

استمرت هذه الهلوسة والهذيان يطبقان على
دماغي حتى وصلت إلى البيت. دخلتُ إلى غرفتي تواً،
ثم لبست "بيجامتي" وخلدتُ إلى النوم.

الفصل الرابع :

كانت أختي نادية فتاة خفيفة الظل ، تتميز بروحها المرحية وظلها الخفيف، اشتغلت في بداية حياتها العملية، بضواحي المدينة، لكن والدي استطاع أن يتدخل عن طريق بعض معارفه، وتم نقلها إلى داخل المدينة، ومنذ ذلك الحين أصبح موضوع زواجها واستقرارها يقض مضجع والدي، فهو تثيره أحيانا تصریحا، وأحيانا أخرى تلمیحا، وكانت أختي تكتفي بالابتسام وترديد قولها المعتاد: " عندما يأتي النصيب نقول باسم الله وندخل القفص دون تردد " وكان والدي يعلق على الموضوع ضاحكا " أتمنى ألا تتزوجي رجل شرطة لأنك لن ترتاحي معه، لأن حياته كلها متاعب ومشاكل " .

ولأن علاقتي بنادية كانت قوية وعميقة، لم أتردد في قبول اللقاء مع الرجل الذي تتمناه شريكا لحياتها؛ رافقتها للقاءه أحد مقاصف المدينة ..

كان فتى أختي شابا رقيق العود، متوسط الطول، أكرث الرأس، لا تخلوا تقاسيم وجهه من وسامة. ما أن وقع بصره علينا أنا وأختي متجهين نحو مكانه في المقصف حتى قام مسرعا وتقدم صوبنا مستبشرا. مدّ نحوي يدا نحيفة وهو يبتسم، وأسرعت أختي تقوم بواجب التعريف:

- عبد الحق، أخي.. الطاهر..
ردّ هو بصوت متلعثم:
تشرفنا...
- قلت الكلمة نفسَها.. وجلسنا جميعا حول إحدى
منضدات المقصف. جاء النادل، فطلبنا عصيرا. قال
الطاهر، برنة يختلط فيها الخجل بالاضطراب، موجهها
حديثه إليّ:
لا بد أن الأنسة حليلة حدثتكم عن رغبتى..
وقاطعته أختي ضاحكة:
وقلت له إنك تريد أن تتزوجني..
قال هو:
ما رأيكم، إذن؟
ابتسمتُ وقلتُ:
الرأي رأيكما، ما دمتما متفاهمين؛ فأنا، شخصا، أدعو
لكما بالسعادة.
ردّ بصوت ينم عن الشعور بالغبطة:

بالمناسبة، أرجو أن تفتح السيد الوالد في الموضوع وتهيئ لنا جو الزيارة، أنا ووالدتي.

لا مانع عندي في هذا.. سأقوم به على الرأس والعين.

جاء النادل بكؤوس العصير، فارتشفنا منها، واندفع الطاهر يحدثني عن نفسه بأسلوب مرتبك، تحت نظرات أختي المركزة عليه وابتسامتها لا تفارق شفيتها. قال إنه موظف في وزارة الفلاحة ويسكن صحبة والديه وأخته الأرملة. قال أيضا، إن أصدقاءه في العمل يحسدونه على حسن سلوكه وجدّيته في العمل وعلى حسن علاقته برئيس المصلحة.. استمر على هذا المنوال، حتى بعث كلامه الملل في نفسي. لمستُ عن قرب ضعف شخصيته، وقلت لنفسي: "لا بد أن هذه الصفة هي التي جعلت أختي تختاره دون غيره؛ فالمعروف عن بنات حواء أنهن يهمن بحب الامتلاك، وزوج من هذا النوع كفيل بأن يرضي غرورهن ويمنحهن فرسا متكررة لاستعراض عضلاتهن".

قاطعتُه أختي، من جديد، وهو منصرف إلى الحديث قائلة:

- أظنك ستجد فرصا أخرى، يا عزيزي، لتقص على أخي فصول حياتك.

رد مبتسما:

- طبعاً.. لقد أصبحنا عائلة.

تركتُ أختي مع فارس أحلامها ومضيت، أنقر بخطوي الشارد صدر الرصيف الجامد. وفجأة، انتابني توتر شديد، وبدأت لي كل الأشياء باهتة.. لم أعد قادراً على التركيز، وفقدتُ السيطرة على نفسي، وانطلقتُ داخلي صرخاتُ الوحش الجائع، وراحتُ تعلو وترتفع، وانحدرتُ حتى لامست الحضيض، وإذا بي عارٍ تماماً من مسوح التكلف، وإذا بخلجات شبقية تتردد في أعماقي: ماذا حدث؟ لا أدري.. فكرتُ: ما أجمل جسد سامية الصارخ بالحياة، إنه شهّي ولذيذ.. ولكن أين هي سامية الآن، في هذه اللحظة المتأزمة؟

تحسستُ بأناملي مفتاح شقة صديقي حميد في جيب بنطلوني. مضت مدة لم تطأ قدمي هذه الشقة صحبة فتاة، ما الذي يمنع من هذا اليوم؟ راحتِ الفكرة تكبر وتكبر حتى ملكت عليّ عقلي، ومرّ شريط من اللقطات الجنسية التي خبرتها من قبل بذهني. أدركتُ أن تصريف توتري لن يتأتى إلا عن طريق "الممارسة

الفعليّة"، وقلت لنفسى: "لأبحث عن امرأة أو فتاة تمتص جذوة رغبتى الثائرة وتجمد ثورة بركانى".

شارع مولاي يوسف يضيق بالمارة، المندفعين من الأزقة الفرعية، أو المتجمهرين حول واجهات المحلات التجارية أو بائعي السلع المعروضة على الرصيف.. والسيارات تمرّ وسط الطريق بصعوبة، والشرطيّ يرفع يديه في مختلف الاتجاهات، وصفارته تدوي باستمرار. قطعْتُ إلى الرصيف الثاني عبر علامات المرور الخاصة بالراجلين. انحدرتُ عبر زقاق مولاي إدريس، المختق بالسابلة. قادتني قدماي إلى "قيسارية الشراي". كان روادها كُثرا، وأغلبهم من النساء. غرقتُ بين طوابير متحركة، وسمحتُ لعيني بتتبع الحسنات المتجولات. غازلتُ إحداهن، فرمقتني بنظرات نارية. تركتُ القيسارية وعدتُ، من جديد، إلى زقاق مولاي إدريس، ثم إلى شارع مولاي إسماعيل.. دخلتُ إلى قيسارية أخرى في هذا الشارع. صعدتُ إلى طابقها الفوقي. غازلتُ امرأة ناضجة؛ قالت لي: "اسمح لي، يا سيدي، راني مُزوجة".. ومضت إلى حال سبيلها. نزلتُ إلى الأسفل، ثم خرجتُ إلى إفريز الشارع مرة أخرى. مشيتُ بخطو متناقل. "أحسست بالياب القاتل يتسلل إلى كياني، يقتل الابتسامة على شفتي،

يسرق النضارة من محياي ويغرز إبر الكآبة في مسام
جلدي.."..

تناهى إلى سمعي، فجأة، وقع خطو نسائي خلفي؛
فأسرعت ألتفت. التقت نظراتنا، فخفت من سرعتي
حتى تحاذينا وقلتُ بصوت مضطرب:

- مساء الخير..

ردتُ عليّ بصوت تخالطه بحة لذيدة:

- مساء الخير، يا سيدي..

مرّت لحظة صمت قصير، ونحن نمشي؛ قلتُ
بعدها:

- هل أستطيع محادثتك؟

- تفضل، أنا أسمعك.

قلتُ، وأنا أشير إلى الحقيبة الصغيرة التي تحمل:

- يبدو أنّك كنتِ على سفر.

- تماماً.. أنا لستُ من هذه المدينة، وقد نزلتُ لتوي من
الحافلة.

- لا بد أنك جئتِ لزيارة قريب لك.

ابتسمت وقالت:

- نعم، جئت لزيارة أختي، هل هناك من أسئلة أخرى؟
اضطربت.. لكنني تداركتُ الموقف، وقلت:
- في الواقع.. أريد أن أحدثك؛ لكن لا أعرف كيف أبدأ؟
ما رأيك لو نجلس في مقصف أو مقهى؟
ردت:
- لا أستطيع.. أنت تعلم أن المدينة صغيرة، وألسنة الناس طويلة.. ربما يراني بصحبتك زوج أختي.
قلت بجرأة، وأنا أعلم أنني أرمي بآخر سهم في جعبتي:
- ما رأيك لو تأتين معي إلى الشقة؟
الشقة!
- نعم.. هناك لن يضايقنا أحد.
- وأين تقع؟
- قريبة.. وإذا شئت ركبنا "تاكسي".
ظلت صامتة لحظة، خلتها دهرا. ثم قالت:
- لا مانع عندي..
وركبنا سيارة أجرة إلى حيّ النهضة. وطيلة المسافة التي قطعنا، لم نتكلم.. وحين ترجلنا، قلت:

- من الأحسن أن أسبقك واتبعيني من الخلف، حتى لا نثير الشبهات.
- كما تريد.

سرتُ وسارت خلفي حتى وصلنا باب العمارة. صعدتُ ثم صعدت. أدخلت المفتاح في قفل الشقة رقم 4، ودفعْتُ الباب ودلفنا إلى الداخل. كانت الشقة غير مأهولة ولا يزورها صديقي إلا نادراً، وقد اكتراها فقط من أجل جلساته الخاصة.

سألتني الفتاة:

- هل تسكن وحدك؟

قلتُ:

- لا، أسكن صحبة والدي.

تابعتُ، وأنا أشير إلى فضاء الشقة:

- هذه شقة صديقي الخاصة.

دخلنا إلى الصالون. وضعتُ حقيبتها على المنضدة، ثم خلعتُ جلبابها وعلّقتَه في المشجب. لاحَتْ كسوتها مطرزة من حول العنق بـ"الدانتيل"، ومنفتحة على الصدر. ظهر ساعداها الغضبان الطريان. جلستُ على الكنب، ووضعت ساقاً على ساق، فانحسر ثوب

كسوتها وانكشف جزء من فخذيها. أكلت جسدها لحظة
بأنظاري الجائعة، وقلت:

- سأنزل لأحضر مشروباً.

وهولتُ مسرعاً إلى الأسفل. ابتعتُ من البقال
زجاجة "ليمونادة"، وعدتُ على أعقابى وقدماي
ترتعدان. وضعتُ الزجاجة أمامها، وجلبتُ من المطبخ
كأسين وجلستُ قربها. شربنا معاً. قالت وهي تنظر إليّ
بوجه مشرق وعينين دجاوين:

- نظراتك تبدو شرهة.. هل أعجبتُك؟

قلتُ:

- إنك مثيرة..

قالت:

- حقاً؟

قلتُ:

- حقاً.. ما اسمك؟

ابتسمتُ وقالت:

- السعدية.

- وأنا اسمي عبد الحق.

اقتربت منها، وتلامس جسدانا، وأسندت رأسي إلى كتفها. لم تعترض، فطبتت قبلة على خدها، وطوقتها بذراعيّ

برقة تفيض بالحنان، رحت أضمتها إلى صدري، وغابت أناملتي تحت ثيابا ثوبها تتحسس جلدها الناعم. تسالت أطراف أصابعها إلى قفائي، تداعب شعيرات رأسي الخلفية. لفحت وجهي حرارة أنفاسها العابقة بالشذى، ثم انصهرت شفاهنا في قبلة محمومة.. إنها لحظة الرغبة، والحب طليق حر بيننا.. إنها لحظة التوحد والخلود الإنساني. قمت وقلت، وأنا أمد لها يدي:

- تعالي معي.

قامت، خاصرتها وخصرتني.. اتجهت بها نحو غرفة النوم. جلست على حافة السرير؛ جالت بنظراتها في فضاء الغرفة ثم قالت:

- الأثاث رفيع القيمة.

قلت وأنا أبتسم:

- طبعاً، فصاحبه مهندس في الفوسفاط وله إمكانات ضخمة.

ثم ضغطتُ على جهاز "الريكوردر"؛ فانساب
لحنٌ دافئٌ. قامت الفتاة، فخلعتُ ثوبها، ثم اندست تحت
غطاء الفراش، ونظرتُ نحوي كأنما تدعوني إلى
الاقتداء بها. ولم أتوان عن تلبية ندائها الصامت. بعد
حين، أصبحت بالقرب منها، ثم التحمنا، وانصهرنا في
بوثة واحدة، ولم أعد أذكر شيئاً.. نسيْتُ مشاكلتي،
بطالتي، سامية وطبقته.. أصابني ما يشبه الخدر،
وبدأتُ أشعر باللامبالاة نحو صروف الدهر. تبددتُ
قسوة الحياة من حولي، وإذا بشمس الحقيقة تشرف في
ذاتي.. "إنني أحيى وأعانق الوجود؛ أستوعب مفهوم
الحياة وأنعتق من أغلال العدم؛ إيروس العظيم يزرع
شرقة الحب في ذاكرتي"..

تقطّع من الزمن ردح ونحن غارقان في نشوتنا.
وعندما انتبهنا إلى نفسينا كان الظلام قد نشر عباءته
واحتوى المدينة. قمتُ إلى الصالون وتركتها، ثم نزلتُ.
ذهبتُ إلى سوق الخضار والفواكه، فاشتريتُ بعض ما
تيسر، ثم مررتُ على الجزار فاشتريتُ ربع كيلو غرام
من اللحم المفروم؛ ولم أنس الخبز وقفلتُ عائداً إلى
الشقة. وضعت المشتريات في المطبخ، وقصدتُ
الصالون. وجدتها ترجّل شعرها.. سألتها:

- هل أخذت دوشاً.

ردّت:

- نعم.. أنا أعشق النظافة.

كانت أمامها على المنضدة أدوات زينتها التي أخرجتها من حقيبتها. جلست بمواجهتها، أتأملها وهي تتزين. كانت بحق امرأة ناضجة الأنوثة وفائقة الجمال. عندما انتهت، دعوتها إلى المطبخ، ومضينا نعدّ طعام العشاء.

تعشينا في الصالون، وأكلنا تفاحا، بعد ذلك، ثم شربنا الشاي. دخنتُ سيجارة، أما هي فقالت إنها لا تدخن. سألتني، وعيناها تومضان ببريق لذيذ:

- حدّثني قليلا عن نفسك.

قلتُ:

- ماذا تريدان أن تعرفني؟

- ما لا تستطيع أن تخبئه وتبقيه سرا.

مضيتُ أحكي لها عن نفسي، ومشاكلي، وبطالتي؛ حتى إذا فرغت، قلتُ وأنا أبتسم:

- والآن، جاء دورك، حدثيني عن نفسك..

قالت، وهي تسرح بنظرها نحو النافذة المشرعة
على مصراعيها:

- أنا من مدينة تادلة، متزوجة منذ ثلاث سنوات.
قاطعتها باندعاش:

- متزوجة؟!
- ماذا؟ هل تراك ندمت على كل ما جرى بيننا؟!
- لا أدري.. لا أدري.

قالت وهي تأخذ يدي بين راحتيها:

- زوجي يشتغل في فرنسا، وقد مرّت الآن سنة وثلاثة
شهور على غيابه.. وأنت تعلم أن هذه المدة طويلة..
فكيف لامرأة شابة مثلي، حديثّة العهد بالزواج، أن
تصبر.. كل هذه المدة؟

سألتها:

- هل هذه هي المرة الأولى التي تضاجعين فيها رجلا
غير زوجك؟

ابتسمت وقالت:

- وهل يهمك أن تعرف؟
- إذا لم يكن هناك حرج؟

- الواقع أنها ثاني مرة.. فمنذ ستة أشهر خلت، قضيت ليلة ممتعة مع رجل في الأربعين هنا في هذه المدينة تحديدًا.. فأنا لا أستطيع أن أحرّك الساكن في تادلة، لأنني أقيم صحبة أم زوجي.
- إذن، فزيارتك لأختك اليوم لم تكن إلا ذريعة لإشباع رغبتك!؟

ضحكت وقالت:

- أنا أضرب عصفورين بحجر واحد، على كل حال.
- فكرت: "الجنس، أحيانًا، يصبح غلا يطوق عنق الإنسان ويجرفه إلى الهاوية".
- اقتربت مني حتى حاذتني ووضعت شفرتها على رقبتني، ثم أحاطتني بذراعيها وهمست بحنو:
- فيم تفكر؟

لثمتُ جبينها المضيء، وأجبتُ بصوت رقيق:

- لا أفكر في شيء..
- اسمع يا عبد الحق.. لا أريدك أن تندم على شيء.. وتذكر أنني سلّمتك نفسي برغبتني، لأنك تستحق.

ودرج الوقت هادئًا. بدا الشارع عبر النافذة ساكنًا، ما عدا من مواء بعض القطط الشاردة، الذي كان

يسمع من حين إلى آخر. علقت بجو الغرفة شذرات من عبق عطر السعدية، ذي المفعول السحري على الخياشيم، ولاح محياها يومض بلمحات من سحر قوي. قلتُ، وأنا ملي تعبث بخصلات شعرها المنسدل على كتفيها:

- الليلة ليلتنا.. فلنعشها كيفما كانت الظروف.

ثم قمنا وأنا أطوق خصرها اللدن، ومشينا نحو غرفة النوم، وتمطّت على السرير بغنج مثير. ضغطتُ على زر الأباجورة الصغيرة التي تعلو المنضدة المجاورة للسرير وأطفأتُ نور مصباح الغرفة العادي فانساب ضوء أحمر خافت يضاهي لون الشفق، وانسكبتُ ظلاله البهية على جسدها الرخو. تمددتُ إلى جانبها، ثم أخذتها بين أحضاني وغرقنا في بحر الشهوة الحمراء.

تسرّبت الأشياء أمام أنظاري بلون ورديّ فاتن. أخذتني نشوة أحلام جامحة، واختلجت في داخلي رعشات دافئة. اشتعل لهبٌ من الشبق واللذة في أحشائي، وانحسرت براقع الزمان عن زخرف من الأماني الناطقة، وصبّت كؤوس المدام على موائد السحر الشائق. عانقتُ في جسدها الغضّ النابض بالحياة حرارة الوجود، وتجرعتُ من شفتيها التامرتين جرعات

من العسل الصافي. قلتُ لنفسي: "ليذهب الضمير إلى الجحيم، ولتسقط القيم في قبو النسيان.. ما الحياة إلا عبث، ولا داعيَ إلى التشبث بالمثاليات في عالم لا يعترف بها.. وعلى كل حال، لو لم أكن أنا الذي ضاجعتُ السعدية لكان غيري" ..

مضى الوقت يقطع مشواره، وحلّ الفجر بأنسامه العذبة. تسرّبت إلينا من فجوة دفتي النافذة برودة لذيدة. أحسستُ بجفني يتقلان عليّ، فأسلمتُ نفسي لسلطان النوم وأنا أطوّق وسطها بذراعي..

فتحتُ عيني على أشعة الشمس تتسرب من النافذة، وتنعكس مباشرة على الفراش. كانت السعدية قد أفاقت، هي الأخرى، من النوم وألقيتُ نظرة سريعة على المنبه النابض فوق المنضدة. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. عندما أردتُ القيام، أمسكتِ السعدية بيدي وسلمتني شفتيها، ودخلنا من جديد مضمار الفعل.

استحمنا معاً، ثم أفطرنّا. ارتدتِ السعدية جلابها وحملت حقيبتها، ولما همّت بالخروج دسستُ في يدها بعض الوريقات المالية؛ لكنها انتفضت وعلت أساريرَ وجهها مسحة من الغضب وهتفت بي:

- إنك تهينني بهذا.. أنا لست عاهرة حتى أقبض الثمن!
 - لم أقصد، لكن...
 - أنا لست محتاجة.. زوجي يكفل لي عيشة مثالية.
- قلت لنفسي، وعيناي متثبتتان عليهما: "ومع ذلك، تخونينه"! استطردت، محدّثا نفسي دائما: "ولكن من يدريك، يا جميلتي.. لعله غارق اللحظة في أحضان شقراء فرنسية.. فنحن الرجال لا نزهد في النساء إلا ونحن على حافة القبر"..
- خرجتُ بعد أن اعتذرت لها، واسترجعتُ منها تلك الوريقات المالية. عدتُ إلى البيت متعبا مكدودا، فصعدتُ إلى غرفتي ونمتُ نوما عميقا.

الفصل الخامس :

قمتُ من مكاني في المقهى، وأسرعتُ أستحث
الخطى نحو البيت؛ فالיום كان يوم خطوبة أختي، وقد
يكون الضيوف بدؤوا يتقاطرون على البيت، وربما جاء
حتى العدلان، فقد قرّر قرار الأسرتين على كتابة العقد
يومه، على أن تكون الدخلة في الصيف.

كان الجو دافئاً، وريح طيبة تهب في خفة ناعمة،
والمدينة تبتسم في غنج، وقد أسلمت جسدها إلى أشعة
الشمس الأرجوانية، تضمد جراحها..

عندما اقتربت من بيتنا، تهادت إلى أسماعي
نقرات الدفوف، وأصوات نسوية تلهج بالغناء.. وقلت
لنفسي وأنا أدلف داخلا: "الحياة عجيبة يوم رقص
وغناء، ويوم حزن وبكاء"..

واستقبلتني أمي في الردهة التي كانت مكتظة
بالنساء، والفتيات يرقصن ويغنين في فرح، وقالت:

- أين تأخرت؟ الرجال في الصالون.. هيا ادخل، لقد
حضر العدلان.

دخلت إلى الصالون، كانت أسرته تضيق
بالجالسين.. وجلست قرب أبي، دون أن أنبس بكلمة.
وقرأ الجميع الفاتحة وكتب العدلان العقد، وجاءت أختي

وقالت إنها موافقة ووقعت، ثم خرجت وهي تكاد تذوب خجلاً.

ونادت عليّ أمي، وأخبرتني بأن سامية وأمها وأختها حضرن، وأنهن في الصالون الصغير مع أختي، فذهبت إليهن، وألقيت عليهن التحية، وتبادلنا الحديث لحظة، وقالت أمّ سامية:

- العقبة لك، يا عبد الحق.

وقلت:

- شكراً، يا سيدتي.

وجاءت أمّي وقدّمت لنا الحلوى وكؤوس الشاي، وقالت سامية وهي تنظر إليّ بوجهها الساجي:

- أريد أن أرى قصائدك التي حدثني عنها قبل يوم.

ورددت وعيناى ترتويان من ماء محياها الدافق:

- سأصعد لأحضرها من غرفتي.

وقالت وهي ترد خصلة تدلت على جبينها إلى الخلف.

- بل سنصعد معاً.. أريد أن أرى غرفتك..

ونظرت إلى أمها مبتسمة، وردت هذه الأخيرة
بابتسامة مماثلة. وصعدنا إلى غرفتي.. فتحت النافذة،
وتسربت أشعة ذهبية إلى داخلها. وقالت سامية وهي
تجلس إلى مكتبي الصغير:

- تبدو غرفتك آية في النظام.
ورددت:

- إنني أعشق النظام..

ثم أشرعت "دفتي" خزانتي الخشبية القديمة،
وسحبت رزمة من الأوراق وقصاصات الصحف،
وقدّمتها لها:

- هذه بعض أشعاري يمكنك أن تقرئي منها ما تريدين.

وراحت أناملها تعبث بمحتوى الرزمة، وعيناها
تلتهم سطور هذه الورقة وتلك القصاصة. وجلست أنا
على حافة السرير، أنظر إليها كطفل صغير يشتهي
حلوى لذيذة، ورفعت رأسها نحوي بعد حين قالت:

- أشعارك تذكرني ببودلير ورامبو.. لا شك في أنك
قرأت لهما.

- طبعاً، قرأت لهما.. لكنني لم أتأثر بهما تماماً..

بكل صراحة، وبالرغم من قلة قراءتي للشعر
بالعربية؛ أستطيع أن أقول لك إن قصائدك جميلة
وشفافة.. وعالمك الشعريّ رحب يتحقق فيه الجمال
المثاليّ والفن الرفيع.

وأصابني فرح طاغ، وكلماتها تنكسب في أذني،
وحرّكتُ رأسي علامة على الرضا. وتابعت قولها
وعيناها متبثان على وجهي:

- تجربتك تبدو عميقة. ومعاناتك واضحة الملامح عبر
سطور شعرك. وران صمتٌ خفيفٌ حطمته بصوتها
العذب وهي تقول:
 - أرجو أن تمنحني نسخا لبعض قصائدك..
 - آه.. طبعاً، يمكنك أن تختاري من القصائد التي بين
يديك ما يعجبك.. فأنا أملك مسوداتها.
- وتمتت بنبرة مشبعة بالامتنان.

- شكراً..

ثم عادت أناملها تعبت بمحتوى الرزمة، ثم ما
لبثت أن اختارت بضع قصاصات أودعتها في حقيبة
يدها وهي تبتسم، وقامت من مكانها نحو النافذة،
واستندت بمرفقيها إلى حافتها، شاخصة ببصرها إلى
الشارع بدت كتخفة زاهرة بالفتنة..

ما أشهاها، انثالت دقات شبق كاسحة في
أعماقي، واستويْتُ واقفا واقتربتُ منها حتى حاذيْتُها،
ولاح جبينها العاجي، فرحة بيضاء تنثر شأبيبها في كل
اتجاه، وأبصرتُ في عينيها هالة من السحر الأخاذ،
وارتفعت دقات قلبي، وأصابني شبه غثيان،
واضطرمت في نفسي نزعات من اليأس والأمل،
وتعبت عينايا من التحديق وقلبي من الخفقان، وأخيرا
تجرتُ وطوقتُ خصرها الرقيق بيدي وهتفتُ قائلاً:

- سامية.

والتفتت نحوي بوجه مضيء وقالت:

- ماذا؟

لم يسعفني لساني في الجواب، وأسرعتُ أضمها
إلى صدري.

وسمحت لشفتيّ باقتناص قبلة محمومة من
شفتيها الطريتين وهتفتُ بي:

- دعني أرجوك..

وخطوتُ بها نحو السرير، وتهاوينا ودفنتُ
وجهي في صدرها الناتي، وشممتُ رائحة الحياة تطفح
من بين نهديها، وتفجرتُ كوامن الحرمان التي طالت

فترة حبسها، وغاب عقلي في متهات اللذة العمياء،
وكانت هي مستسلمة استسلام لا مبالاة، كانت بين يدي
جسما ساكنا لا يتفاعل معي وقلت لأنفسي: "هذا ليس
مهما.. ولأنهل من نبع العسل الصافي.. وأروي ظمأ
قلبي الصادي" ..

همستُ لها بصوت مضطرب:

- سامية.. أرجوك تفاعلي معي.
- لم ترد عليّ بشيء.. وظلّلت صامته وعيناها
مغمضتان. وتماديْتُ في جرأتي ومددتُ يدي إلى ثبانها
فإذا بها تقفز من مكانها.. وتصرخ بي:
- أرجوك أنا عذراء.. لا تكن أحرق.
- ثم استقامت واقفة، وراحت ترتب ثيابها..
وبعدها، قالت:
- هيا ننزل سيفتقدوننا، وقد يصعد أحدهم.

وحاولت تقبيلها مرة أخرى؛ لكنها صدّنتني
بلطف.. وأسرعت تفتح باب الغرفة ثم تندفع نازلة،
وتبعثها من الخلف.. وأنا أتحسر، وأشعر بالانهيار. كان
الغناء والرقص مستمرا والبهجة تكاد تقفز من عيون
الجميع، ودخلنا إلى الصالون الصغير، وجلست سامية

قرب أمها وهي تبدو طبيعية في كل شيء، وجلست بمحاذاة أختي، وجبيني يتفصد من العرق. شعلة من اللهب تلهب صدري، وقالت سامية وهي توجه الحديث إلى أمها:

- غرفة عبد الحق غاية في النظام..

ابتسمت الأم، وأسقطت نظراتها عليّ وتمتمت:

- سلوك عبد الحق وتصرفاته منظمة.. فكيف لا ينعكس ذلك النظام على غرفته؟!

ومرّ الوقت رتيباً، مفتقدا لكل مغزى، وشعرت بوخز إبر وهمية في كل مناطق جسدي..

قامت الحاجة زينب وابنتاها مودعات، وشايعتن أمي حتى الخارج وهي تطلق كلمات الامتنان والشكر، ثم ركنن سيارة "فياط" ساقتها الحاجة..

تركتُ أنا البيت، وأهله لرقصهم وغنائهم، وخرجت.. لا أعرف لي اتجاها.. أحسست بغربة قاتلة تهتصرني، ولعنت نواميس المجتمع المهترئة، وجذور الطبقة المخزية.. التي جعلت سامية تقابل إقبالي عليها بلامبالاة مغالية وكأنها تقول: "أنت مرفوض.. وقبلأتك غير مستحسنة.. فاحتفظ بها لنفسك".. إنها، على كل

حال، مأساة الكادحين في مجتمع معقد، يخضعهم لقوانين جائرة تحرمهم من حرية التعبير وممارسة فرديتهم، وتفرض عليهم أنماطا معينة من السلوك، تقضي ببقائهم حيث وجدوا، وتقبر كل طموحاتهم، وتنمي داخلهم إيديولوجيا من نوع "بعد على الزين أنت غير راجل مسكين"؛ فالأشياء الجميلة للقادرين: أو لمن يوصفون بالصفوة. ومن دونهم فيكفيهم الفتات، والأشياء الأقل جودة..

وقادتني قدماي الواهنتان إلى حانة باريس، فدلقتُ داخلا دون شعور، كانت بي رغبة عنيفة إلى قتل وعيي، والاستسلام إلى عالم الأحلام.

اقتربتُ من الحاجز الخشبي، واعتليتُ إحدى "الطبوريات" وأشرتُ بيدي إلى الساقية السمينة التي كانت تقبع خلف "الكونتوار"، طالبا ست زجاجات من الجعة، فأسرعت تلبي طلبي.

واحتسيتُ الأولى ثم الثانية، وسرتُ نشوة غريبة في أوصالي وقلتُ لنفسي ليذهب المجتمع وقيوده إلى الجحيم، ثم واصلتُ الاحتساء حتى آتيتُ على الزجاجات الست، وأشعلتُ سيجارة نفتت دخانها ببطء، ورحتُ أمسح بعيني المتعبتين فضاء القاعة.. كانت هناك وجوه مكدودة، فضّل أصحابها ممارسة لعبة

الهروب إلى الأمام، مثلي.. وكانت هناك ثثرة وعريضة، ورؤوس تتمايل مع اللحن الشعبي المنبعث من "سلسلة الستريو" ..

جاءني صوتٌ مبجوحٌ من خلف ظهري:

- هل أنت وحيد؟

والتفت نحو مصدره، فوجدتني أمام مومس ضامرة العود، قد لطخت وجهها بالأصباغ حتى صارت أشبه بمهرج سيرك.. وأجبت:

- نعم وحيد، وأفضل أن أبقى وحيدا..

ابتعدت عني دون أن تعلق على كلامي، ثم طلبتُ ست زجاجات أخرى.

أقبلتُ عليها بنهم مفرط، وأحسستُ بعقدة لساني تنحل وانتابتنني رغبة قوية في الكلام وقول أي شيء، وغابت كل المنغصات عن بالي.

والتفت نحو جاري وكان شابا أنيقا وقلتُ بصوت عال:

جوع آخر

عميق جدا وكاسر

أكثر حمرة من الموت وأكثر صخباً

الجوع لامرأة

الذي يجب أن نتعلم كيف نشبعه

برضا حقيقي صرف

أو نموت..

ليس هناك من بديل

امرأة أشبعت فيّ هذا الجوع أخيراً

ما لا تستطيع نساء كثيرات أن يمنحنه

تستطيع امرأة واحدة

وقفت قبالي كخيرات مملوكة لي

وحتى وقتها في العتمة

كنتُ معذباً ضارياً مقيداً خجلاً، ومخزياً،

وشريراً.

إن الإنسان يصاب برعب كبير من الجوع

العنيف

وهذا الرعب هو جذر كل القسوة.

أحبّبتني ووقفتُ قبّالتي،
تنظر إليّ كيف أنظر،
وأنا محموم بالجنون
واختلست نظرة جانبية
أنا محموم بجنون رغبة مفترسة...
أستطيع أن أضع وجهي بين نهديها
وأعرف أنهما قد أعطيانني إلى الأبد
وأنتي لن أجوع أبدا
لن أضمحل
لقد أكلت من الخبز الذي يشبع
وهذا جسد جسدي
صار هناك سلام وثناء وتحقق.
ضحك الشاب.. وقال:

- أنت تقول شعرا.

ورددتُ:

إنها أبيات من قصيدة "مانفستو" (manifesto) للأديب الإنجليزي لورنس.. لا شك في أنك تعرف دافيد هيربرت لورنس.. إنه كاتب رواية "نساء في الحب" (Women in love) ورواية "عشيق الليدي شاترلي" (Lady Chatterley's Lover)

ردّ الشاب:

- بكل صراحة، أنا لا أعرف لورنس هذا ولا قرأت عنه أو له شيئاً.. لكنّ كلامه، الذي قلتَ قبل قليل، يبدو جميلاً. ثم قدّم لي سيجارة قبلتها منه وشرعت في تدخينها بلذة واستمتاع.. وعبر حلقات دخانها المرتفع، تراءت لي صورة سامية وهي عارية تماماً ويدها ترتفع في الهواء مشيرة إليّ..

- يا لجمال رديها المكورين واستقامة قدها الأهيّف.. يا لبياض نهديها الناضحين بالشهوة، وتينيك العينين الزرقاوين، ما أروع ذلك البريق المتسرب منهما!

غمرتُ وجهي براحتي يديّ؛ دعتُ عيني الذابلتين، ثم ضحكتُ. انخرطتُ، بعد ذلك، في قهقهة هستيرية استرعت انتباه الجالسين قربي.

اقترب مني الشاب وهمس لي:

- من الأحسن أن تذهبَ إلى البيت..

لم أجبه، واصلتُ القهقهة. وفجأة، شعرتُ
بالدموع تطفّر من عيني، وإذا بي أبكي وأشهى.

أمسك الشاب بذراعي وكرر كلامه السابق،
بصوت أكثر خفوتا وفيه شيء من العطف. استويت
واقفا ودفعت ثمن ما استهلكت وخرجت.

كان الليل قد انتصف وشوارع المدينة قد أقفرت
إلا من بعض الحيوانات الضالة تعبت بصناديق القمامة.
كان الهدوء قد عمّ الكون، وبدت النجوم متألئة في كبد
السماء. تذكرتُ كلمات نيتشه، على لسان زرادشت،
للنجم العظيم، فشرعت أرددها بيني وبين نفسي: "إيه
أيها النجم العظيم، أن لي الآن أن أغيب كما تغيب...
طوبى للكأس التي تريد أن تطفح كما يفيض منها ماء
كالذهب، حاملا في كل مكان انعكاس ابتهاجك.. انظر،
إن الكأس تريد أن تفرغ من جديد".

فجأة، انهال عليّ ضوء قويّ من الخلف؛ فالتفتتُ
نحو مصدره. وجدتني وجها لوجه مع "الفاركو"، التي
توقفت بمحاذاة الرصيف، ونزل شرطي مديد القامة
واتجه صوبي، قائلا:

- بطاقة تعريفك، لو سمحت..

دسستُ يدي في جيوبي تباعا، متظاهرا بالبحث،
ثم رفعتُ رأسي نحوه وقلتُ:

- لا أحملها معي.

ضحك الشرطي، وقال:

- لا تحملها؟ هذه مخالفة خطيرة.. قل لي كيف سنعرف
هويتك، إذن؟

- هل يظهر عليّ أنني محلّ ريبة وشك؟

تظاهر الشرطي بأنه يشم شيئا، وهتف بي:

- يبدو أنك سكران، وهذه جنحة أخرى.

ابتسمتُ وقلتُ:

- ولكنني لم أثر فوضى، ولم أخلّ بالأمن.

- آسف.. سترافقنا إلى المركز.

- أرجوك!

- ليس هذا وقت رجاء.. قلت ستذهب إلى المركز، إذن
فستذهب؛ لا ترغمني على استعمال العنف.

أحسست بأن صاحبنا جدّي في كلامه، فقررت
استعمال ورقة "الجوكر". قلتُ وأنا أنظر إليه:

- وهل يرضيك أن ينام ابن أحد أفراد الأسرة على
"الضّس" ..

- أحد أفراد الأسرة!

ضحكتُ وقلتُ:

- أنا ابن السي العربي، مفتش الشرطة القضائية.. لا شكّ
في أنك تعرفه.

ابن السي العربي.. وكيف أتأكد من ذلك؟

- يكفي أن تسأله.. أنا ابنه البكر.

ران علينا صمتٌ قصيرٌ، ثم قال الشرطي:

- هيا اركب.. سنوصلك إلى حيث أنت ذاهب.

ابتسمتُ، ثم ركبتُ، وسألني الشرطي:

- أين تسكن؟

ردّدت:

- في حي الحبوب.

وانطلقت بنا السيارة في صمت الليل الرهيب.
ظللنا صامتين، حتى وصلنا إلى الحي. توقفت السيارة
ونزلت. أشرتُ إلى الشرطيين القابعين داخلها بيدي
مودعا. اندفعتُ أشق طريقي نحو البيت، حينما وصلته

كان الضيوف قد ذهبوا والحفل انتهى. أويتُ إلى غرفتي مباشرة؛ خلعتُ ثيابي بسرعة، ثم اندسستُ تحت الملاءة واستسلمتُ لسلطان النوم.

مع مطلع شهر ماي، بدأتُ حمى الامتحانات تنتشر.. انكبَّ معظم الطلبة على الورق، يهتمون محتوياته، في انتظار يوم الحساب. كنتُ قد شرعتُ في الاستعداد لمباراتي الالتحاق بكلية علوم التربية والمركز التربوي الجهوي، مع استمرار إعطائي دروس التقوية لكل من سامية وحليمة، اللتين كانتا، حسب ما يبدو، مستعدتين خير استعداد لمواجهة أسئلة الامتحان.

كنتُ أحاول أن أطرد من بالي كل هموم الماضي، وأخفف من حدة التفكير في سامية وعالمها الساحر، الذي عجزتُ عن اقتحامه بالرغم من محاولاتي السابقة، مقتعاً نفسي بعدم جدوى الاستمرار في ممارسة عملية خداع الذات.

كانت سامية تقابلني بسلوك ثابت ولا مبالة قاهرة.. كان إحساسها نحوي بارداً. قلتُ لها مرة: "أريدك أن تحسي بي.. أنا أتعذب من أجلك"، فردت علي بصوت هادئ: "إنني أحس بك كصديق، كأخ.. فلا داعي لأن تتعذب من أجلي"..

كانت عجلة الأيام تدور وتأخذني في تقاهات
الحياة اليومية، والواقع يهترئ ويهتز ويعلن عن
تناقضات صارخة تكبل يدي، والعالم يبتذل ويغرق في
حماة المهزلة.

لم أكن أدري ماذا يجب أن أفعل، ولا أعرف
كيف يجب أن أتصرف؛ سلوكي سلّمته للعبثية العمياء،
تتصرف فيه على هواها.

كنت أتألم في صمت وأعيش متخطباً في السديم،
وأتساءل: لماذا هذه اللاعدالة في مجتمع يدّعي العدالة؟

كنت أشعر بأن فرديتي ملغاة تماماً، وبأن
وجودي لا طائل منه بتاتاً، ما دام الدور المسند إليّ
يسلبني الحركة والفعل.

كنت أعيش غمار المأساة، وأنا أعلم أن لا
مناص لي من ذلك، وأقول لنفسِي: "هذا قدرِي..
فلأواجهه بشجاعة" ..

درجت الحياة تافهة، تجري أحداثها دون معنى.
اجتزت المبارتين اللّتين كنت أعلق عليهما كل آمالي
وأربط بهما مستقبلي. عكفتُ أنتظر النتيجة علها تكون
خيراً.

تقدمت سامية، هي الأخرى، للامتحان وهي تعلم أن النجاح سيكون حليفها، وكان هذا رأيي أيضا. كانت ذكية وابنة رجل موسر؛ ومتى اجتمع الذكاء والمال فإن النجاح يصبح أقرب إلى المرء من حبل الوريد. وفعلا، تحققت لها أمنيتها، وحصلت على شهادة البكالوريا بميزة حسن. أقام والدها حفلا بالمناسبة؛ ذهبت بمعية أختي وخطيبها لحضوره. استقبلتنا أمها بوجه بشوش ضاحك، ثم جاءت سامية وهي تخطر في ثوب حريري أزرق وحيّتنا. اندمجنا مع المدعويين، الذين كان أغلبهم من الطبقة الراقية، في أحاديث روتينية تافهة.

كان رشيد حاضرا، وقد بدا أنيقا جدا في بدلته الرفيعة.. كانت سامية تقابله بابتسامة لا تفارق شفيتها، وقد راقصته أكثر من مرة، واستلطفته وأفاضت في ذلك. كان الانسجام بينهما يبدو واضحا.

شعرت بغيرة قاتلة تعتمل في قلبي، وتجرعت كأس الهزيمة المرة، وأنا أتتبع تصرفاتهما. ماذا يحدث لي يا إلهي؟! إنني أسقط، أنهزم.. إنني مرفوض وهو مقبول.

سألتني أختي وقد رأنتني شاردا:

- ما لك، تبدو ساهيا، غارقا في دوامة التفكير؟

رددتُ بصوت مكتئب:

- ليس هناك شيء.. أتأمل فقط.
- ولكن علامات الحزن واضحة على وجهك..

ضحكتُ بسخرية، وقلتُ:

- الحزن لن يجد أحسن من وجهي لينشر معالمه عبر تقاسيمه.

دعا أختي خطيبها إلى حلبة الرقص، ومكثتُ وحدي، منصرفاً بكل حواسي إلى تتبع حركات سامية ورشيد. اقتربتُ مني الحاجة زينب، وقد تأنقت في هندامها وقالت:

- مالك صامت وتجلس منفرداً؟ ألسنتُ سعيداً بنجاح تلميذتك؟

قلتُ، وأنا أتصنع الفرح:

- أنا سعيد، يا سيدتي؛ بل إن فرحتي أكبر من أن أتحدث عنها.. لقد قلتُ هذا لسامية من قبل، وها أنا أقوله لك.

انتهى الحفل، وعدتُ إلى البيت وأنا أتمزق من الألم. لم يغمض لي جفن طيلة تلك الليلة..

بعد الحفل بيومين، تلقيتُ خبر رسوبي في امتحان الالتحاق بكلية علوم التربية. وبعد ذلك بيوم، علمتُ أنني فشلتُ، أيضاً، في مباراة دخول المركز التربوي الجهوي.

كانت الصدمة أكبر من أن أتحدّث عنها. بكيتُ طويلاً، ثم رضختُ للأمر الواقع.

وفي غمرة معاناتي، طرقتُ باب بيتنا خادمة الحاج حكيم وقدمتُ لنا دعوة لحضور خطوبة سامية ورشيد في بحر الأسبوع الموالي.. وهكذا، تكالبت عليّ الانكسارات، وانطلقت نحوي خيول اليأس الجامحة، تدكّ بحوافرها كل آمالي. فقدتُ كل قدرة على المقاومة والمواجهة، وقررتُ عدم الذهاب إلى حفل الخطوبة.. قالت أُمي عندما رأت حزني:

- كل شيء قسمة ونصيب..

وتابعت، بعد لحظة صمت قصيرة:

- إنني أحس بك وأدرك ما تشعر به.

قلتُ:

- لا أفهم لماذا هذه الدنيا دائماً ضدّي!

قالت، وهي تضمّني إلى صدرها:

لا تفكر في شيء.. اهتمّ بنفسك فقط، ولا داعي
إلى هذا التشاؤم..

رددت بصوت تخنقه الدموع:

- أنا جريح يا أماه وقلبي ينزف، أنا مجرد حطام
هتفت بي أمي:

- كن رجلا يا ولدي، لا تستسلم لليأس والقنوط

لكنّ كلام أمي لم يغيّر شيئا في أحوالي؛ ظلّلت
مراجل الغضب تغلي داخلي؛ لم أعد أطيق الحياة
والوجود .

خرجت من البيت، لا أعرف لي هدفا أو مقصدا.
ظللتُ أسير على غير هدى؛ السابلة تتقاذف بعضها في
كل الاتجاهات، غارقة في فوضى الطريق وفوضى
المشاعر. الرعاع يتطاولون في صنع تاريخ باهت
وشاحب ونحن لا نملك سوى السير على الهامش ننظر
بانكسار إلى مجزرة الأحاسيس تقترفها أياد حديدية
بقفازات من حرير.. هي لحظة السقوط في بؤرة الألم
تتجلى على وجوه الصبايا الضائعات في غيابات
الاندحار، وتقرأ على وجوه الصغار القابعين في زوايا
الاندثار.

وجدتني في حواشي المدينة، أمشي على حافة
الطريق المتجهة إلى بني ملال.

كانت الطريق تلوح أمامي ممتدة وطويلة،
والسراب يتراقص عند مرمى بصري. كنت أحس بعدم
قاتل يلبسني، وكانت رائحة الفشل تُغرقني. كان قلبي
الشهيد ينزف، ونعيق البوم والغربان يلاحق خطاي.
أشعر بتوتر شديد ينتابني، توتر من ذلك النوع الذي لا
ينصرف إلا بالفعل؛ لكنني مكبل وعاجز عن الحركة
ولا أستطيع لنفسي شيئاً. كانت أشجان خرساء تضطرب
في أعماقي وجراح عملاقة تنفتح في وجداني.

"أيّ عالم مقيت هذا الذي نحى فيه! إنه أشبه
بغابة، فالغلبة دائماً للقوي. الضعفاء يسقطون دونما
انقطاع، والأقوياء يمشون على نواصيهم. الوجود
يتحول إلى أكذوبة لا معنى لها، والقطيع يواصل
مسيرته خلف السراب .."

كنت قد قطعْتُ مسافة طويلة، وتسربَّ الوهنُ
إلى قَدَمَيَّ، فاقتعدتُ صخرة تحاذي شجرة كالبتوس
صغيرة. أسندت رأسي إلى جذعها. تناهت إلى سمعي
أصوات معرّبة، فجلتُ ببصري باحثاً عن مصدرها.
استطعتُ أن أتبيّن، على بعد أمتار من مكاني، ثلاثة
شبان بأسمال قديمة، يعاقرون كحول الحريق. كان

أحدهم يترنم بلحن شعبيّ شائع، والآخرون يرددان عليه.
قلتُ لنفسي: إنهم مثلي، خذلتهم الأيام؛ فاختراروا العيش
على الهامش، وفضلوا قتل وعيهم وتعطيل عقولهم عن
التفكير.

تذكرتُ ليلة ذهبتُ إلى الحانة وشربت، لقد
"خلقت" لنفسي في تلك الليلة عالماً خاصاً وجعلت
حواسي ترى الأشياء بمنظار غير ذلك الذي يفرضه
عليها الواقع.

سرقني الوقت، وأنا على وضعي ذاك، غارقاً في
تأملاتي. كانت الشمس قد أسلمت وجهها نحو الأفق
وراحت تختفي والسماء لبست ثوب الشفق. قمتُ من
مكاني واستدرتُ عائداً إلى البيت.

"سأعود إلى قلب المعمة من جديد، وأعيش
غمار المعركة من أجل الوجود. لن أستسلم لليأس
القاتل، سأتسلح بالصدق والإيمان، وسأواجه مصيري
بعزم وعزيمة، وأصارع بكل ما أوتيتُ من قوة من أجل
البقاء.. وأخيراً، فلتذهب سامية ورشيد وكل ما يرتبط
بهما وبطبقتهما إلى الجحيم.."

اكتمل النص يوم 16 أكتوبر 1986

2- بين الأرض و السماء

عندما فتحت عيني اكتشفت بأنني قد حلت
بجسم غريب عني، جسم يبدو أكثر نضارة وشبابا من
جسمي الحقيقي، دقت النظر في المكان الذي أتواجد
به، علني أعثر عن شيء يزيل دهشتي، انا في غرفة
نوم فسيحة، مستلق على سرير ناعم الملمس، وإلى
جانبي تنام سيدة في حدود الثلاثين من العمر، بوجه
أبيض ناصع، وشعر بني ينسدل في رقة على كتفيها
العاجيين المنحصر عنهما ثوب الروب الحريري الذي
ترتدي، بدت في رقدتها كملاك جميل، ودیعة وفاتنة،
كان جسمها قريبا مني حد الالتصاق، مددت يدي
أتحسس مكانه فسرى، في دواخلي تيار دافئ من
التجاذبات، وتدفق الدم قويا في عروقي، فضممتها إلى
صدري بقوة، وأحسست بأنفاسها تلهب أنفاسي، فأطبقت
على شفثيها بقبلة بادلتنني إياها، وهي تهمس بصوت
غنوج: " ما أروعك يا عمر اليوم، تبدو مثيرا، "

عمر، هل هذا هو إسمي؟ أوهو إسم صاحب
الجسم الذي حلت به دون استئذان، تطور العناق
الحميمي إلى التحام مقدس، وصعدنا إلى قمة الجبل في
زمن واحد، وهتفت، بي: " ماذا فعلت بي يا عمر اليوم،
عشر سنوات من الزواج، لم أنل منك مانلته اليوم أيها
الحبيب، كنت رائعا استمتعا و إمتاعا، "

كانت صادقة في قولها، فقد أحسست بنفسني فحلاً معها واكتشفت قدراتي المتجددة على ممارسة الحياة بشكل أكثر توهجا وعمقا، لكنني غير قادر على وضع ما أعيشه حالياً في سياق معقول ومقبول، عمر هو الاسم الذي نادتنني به، وهو اسم أسمع له لأول مرة، ولكنني مقابل كل هذا، أجهل تماماً اسمي الحقيقي ولا أعرف من أكون؟، ولا من أين جئت؟، بل أكثر من هذا هناك ضغط علي من الجسم الغريب عني حتى أقبل بالأمر الواقع، وأدخل غمار اللعبة، دون تساؤل أو محاولة فهم.

كانت تبشير الفجر قد لاحت، وبدأ الخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود، قمت من السرير، كنت أبدو نشيطاً على غير عاداتي نظرت إلى جسمي (جسمه) كان قوياً، وكانت السيدة تنظر إلي بإعجاب وغنج، قادني الجسم إلى فضاء آخر يبدو أنه الحمام، كان فسيحاً يحتوي على حوض للاستحمام بمسرة من الألمنيوم، وحوض بصنوبر لغسل اليدين، وكانت أرضية الحمام من الرخام الأسود، اتجهت صوب المرأة، نظرت إلى وجهي المفترض، اندهشت لما رأيت وجه أبيض نضير، وشعر أسود ناعم ينحدر على جبيني، أتذكر أن شعري ضاع معظمه مع توالي السنين وغدوت أصلاً بالوراثة منذ سنوات، وفيما أنا منصرف

إلى تأمل شكلي الجديد لاح لي طيف "زوجتي المفترضة" وهي تمرق من الباب بثوبها الشفاف، عانقتني بفرح وقالت: "أحبك حد الوله أيها الرائع"، ثم جرتني إلى بانيو العموم، وتابعت كلامها ضاحكة: "سنستحم معاً، لم نفعل هذا منذ زمن بعيد".

غادرنا الحمام بعد الاستحمام، نحو صالون فسيح فرش بكنبات جلدية، ومطارح من خشب الأكاجو الرفيع تعلوها مضارب مليئة بالصوف، وصُفت وسطها موائد من الموشاربي خاصة بالأكل، وفي أقصى القاعة بمحاذاة المدخل برز صوان جميل يتوسطه جهاز تلفاز، لاحظت منذ الوهلة الأولى أنه قديم لا يتناسب مع الزمن المعاصر، ويبدو نشازاً إذا قورن بباقي الأثاث، إقتربت منه، أردت الضغط على زر التشغيل، هتفت بي زوجتي المفترضة: "نحن في بداية اليوم والأرسال لا يبدأ إلا في السادسة والنصف، تبدو غريب الأطوار هذا الصباح"، تراجعت إلى الخلف حين لاحظت لي شهرية تحمل تاريخاً قديماً معلقة على الجدار، سألت زوجتي المفترضة: "هذه الشهرية قديمة جداً تعود لسنة 1965 ترى ماذا تفعل هنا؟" ردت بلهجة مستنكرة: ألم أقل لك أنك غريب الأطوار هذه الشهرية حديثة

والتاريخ هو 23 آذار 1965" نظرت إليها باستغراب
وقلت :

- من أنت؟ أنا لا أعرفك
- زوت ما بين حاجبيها و اقتربت مني ثم قالت:
- أنا زوجتك ليلي بديع وأنت زوجي عمر بوعسرية
- قلت مستغربا :
- لكنني لا أعرفك.. وبالمقابل، لا أعرف من أنا.. الشيء
الوحيد الذي أتذكره هو أنني أنتمي إلى زمن متقدم
- ضحكت وقالت بصوت دافئ:
- دعك من هذا الكلام الآن وهيا بنا نتناول طعام الإفطار،
فدادا أم العز قد أعدت لنا مائدة من الشهيوات الصباحية
كالعادة ولجنا قاعة الأكل، كانت فعلا الطاولة تحفل بما
لذ وطاب من مأكولات شهية وكانت أم العز وهي سيدة
سمراء اللون في عقدها الخامس تقف مبتسمة، قالت
ليلي:
- تفضل لنفطر
- ثم وجهت كلامها لأم العز :
- هل ما زال نعمان نائما

ردت أم العز:

- نعم يا سيدتي

إبتسمت ليلي وهي تمسك بيدي وقالت:

- نعمان إبننا لا تقل بأنك لا تعرفه.

أمسكت عن الحديث واكتفيت بالابتسام، ثم
قررت مجاراتها في اللعبة وقلت:

- هيا بنا نتذوق شهيوات أم العز

كان طعام الإفطار لذيذا، أكلت بشهية مفتوحة،
قطع الكعك، والأرغفة المدهونة بعسل النحل الطبيعي
وشربت الشاي المنسم بالأعشاب المنعشة، نظرت إلي
ليلى بوجه يغمره الفرح مبتسمة، فابتسمت أنا أيضا في
وجهها، وأقنعت نفسي بأن شيئا ما وقع وغير مجرى
حياتي، ربما كنت في عالم آخر خارج نطاق
الاستيعاب.. يتماهى مع نظرية تناسخ الأرواح، كل هذا
ليس مهما الآن، ما دمت أعيش وأحيا، وإن في زمن هو
بالنسبة لي مجرد صفحات من الماضي. أعادني رنين
جرس الهاتف إلى سياق الأحداث، فرفعت السماعة
بشكل عفوي، وقلت بصوت خافت:

- من على الخط؟

ورد صوت قوي النبرات:

- معك العميد فاتح العيادي
- مرحبا بك سيدي

وتابع صاحب الصوت كلامه:

- ننتظر حضورك على وجه السرعة سي عمر هناك
إضطرابات بالشارع العام نحن نتواجد قرب ثانوية
محمد الخامس بشارع 2 مارس حيث يستعد التلاميذ
للخروج في مظاهرات احتجاجية نحو درب السلطان
وطريق مديونة صمت بعض الوقت، ونظرت إلى ليلي
مستغربا، وقالت هي:

- يبدو أن قرار وزير التعليم بحرمان كل البالغين 17
سنة من الإلتحاق بالسلك الثاني من الثانوي هو السبب
في كل ما يقع من إضطرابات

كانت السماعاة ما تزال في يدي وصوت العميد
يتردد عبر أسلاك الهاتف:

- ماذا هناك ..سي عمر لماذا لزمتم الصمت
إضطربت، فكرت " ماذا سأقول له وأنا لا
أعرفه، ترى ما محلي من الإعراب في هذه القصة
الثقيلة على القلب"، علقت ليلي:

- ماذا دهاك يا عمر أنت رئيسه وعليك أن تتصرف

لم أجد بدا من الرد عليه:

- نعم يمكنك التصرف حتى أحضر لن أتأخر
ورد صاحب الصوت:
- نعم يا سيدي سأبدل قصارى جهدي لضبط الأمور في
انتظار حضورك
التفت إلى ليلي وقلت:
- هناك شيء ما خارج عن إرادتي يقع، الأحداث التي
تحدثين عنها وقعت في الماضي ولا علاقة لها
بالحاضر، أرجوك ساعديني أنا غير قادر على التأقلم
مع ما يقع، قد أكون فقدت ذاكرتي، قلت بأنني زوجك
وأن اسمي عمر بوعسرية، فما هي مهنتي؟
ردت ليلي بصوت مستغرب:
- أنت ضابط كبير في سلك الشرطة، درست بفرنسا
قاطعتها دون شعور :
- هذا غير ممكن فعلا أنا درست بفرنسا لكنني كنت
مطاردا من طرف الشرطة، انا مناضل في حزب
الوحدة الوطنية ولا علاقة لي بأسلاك السلطة.

- يبدو أن حרבك على المشاغبين الذين يشتغلون بالسياسة كما تسميهم أنت قد أثرت عليك هيا إنهم ينتظرونك، لباسك الرسمي جاهز ولا تنس سلاحك الوظيفي

لبست البدلة الرسمية للعميد المفترض أنه أنا، و تمنطقت بالسلاح الخاص به، ثم خرجت من باب المبنى، لأجد نفسي في ممر تحفه الأشجار الباسقة وأحواض من الورد المختلف الألوان والأشكال، إكتشفت أنني في فيلا فسيحة ..تقدم مني كهل وخط الشيب فوديه وقال بصوت يشوبه احترام زائد:

- صباح الخير سيدي لقد حضر سائقك الخاص وهو ينتظرك أمام الباب، أخبرني بأنه صادف في الطريق دبابات وسيارات مصفحة للجيش بشوارع المدينة يبدو أن الأمر خطير يا سيدي.

قلت وأنا أصفحه :

- خيرا إن شاء الله

عندما أصبحت خارج الفيلا، إكتشفت أنها توجد بشارع غاندي، وبالضبط في جزئه المتقاطع مع شارع يعقوب المنصور، أبهرني جمال الطبيعة وسحرها رغم الموقف الصعب الذي كنت فيه، ترجل السائق

المفترض من سيارة د- س (ستروين) كانت متوقفة أمام الباب وفتح بابها الخلفي وقال:

- صباح الخير سي عمر

ركبت دون أن أنبس بكلمة، كان صالون السيارة فخماً، الكراسي جلدية وباقي الإكسسوارات كانت فاخرة، ركب السائق، أدار المحرك والتفت نحوي وقال :

- إلى أين سنذهب يا سيدي

رددت بصوت متردد و أنا أعلم مسبقاً انني أشارك في مسرحية أجهل كاتب مشاهدتها وحوارها:

- سنتوجه إلى مكان الاحتجاجات

قاطعني:

- عذرا سيدي المكان خطرونحن دون قوة قد نتعرض لهجوم خاصة وأننا باللباس الرسمي، من الأفضل أن نتوجه لمركز الشرطة ولكن فاتح العيادي يوجد صحبة القوة بشارع 2 مارس

- أعلم ذلك سيدي، لكن من الأفضل أن تخفرونا قوة إلى عين المكان

- معك حق هيا بنا

قطعنا شارع غاندي، ثم انحرفنا نحو شارع
الروداني، كانت تقابلنا سيارات وشاحنات تذكرني بفترة
الستينيات، وفجأة مرقت بالقرب منا سيارة مصفحة
تسير بسرعتها القصوى، وتبينت عند ناصية شارع
الزرقطوني دبابة.. لا بل دبابتين، وكانت رائحة البارود
ممتزجة بدخان الحرائق تخنق الأنفاس، وتمنع الرؤيا،
وسمعا ضرب نار متتابع، علق السائق:

- لقد تلقى الجيش الأوامر بإطلاق الرصاص على
المحتجين، هناك أعمال نهب وتخريب وقعت بدرب
السلطان وباب مراکش.

قاطعته:

- يبدو أن الأمر في غاية الخطورة هيا أسرع فقد نتعرض
لهجوم غير منتظر

رد السائق:

- معك حق يا سيدي ..لقد أصبحنا على مرمى حجر من
مخفر المعاريف.

وصلنا المخفر، كانت هناك عشرات السيارات
لقوات التدخل السريع تقف في صف طويل، وكانت
أيضا سيارات كبيرة للشرطة بلونها الأبيض الموسوم
باللونين الأخضر والأحمر، شعرت بالرهبة وأنا ألج

المخفر، تذكرت أنني مررت من هنا كمتهم بنشر أفكار سياسية معادية للحكومة خلال نهاية عقد السبعينيات، لكنني أدخله اليوم كضابط كبير، في زمن لا أتذكره لأنني كنت ما أزال في بداية عهدي بالحياة، كان المكان أشبه بخاية نحل، وكان هناك ضباط ومفتشو شرطة وكذلك حراس أمن وقابلني الكثير منهم باحترام كبير، وكأنهم يعرفونني منذ زمن بعيد(لا بد أنهم يعرفون صاحب الجسم) قادني السائق إلى مكتب يوجد في مكان قصي، هناك وجدت ضابطا متقدما في السن، أدى له السائق التحية وهو يقول:

- إحتراماتي سيدي المراقب العام
مد المراقب يده لي مصافحا ثم قال:
- الأمور تبدو معقدة، لقد تعرض الكثير من رجال الأمن للإعتداء وقد صدرت الأوامر منذ قليل بإطلاق النار على كل المخرابين، أنت مكلف بقيادة العملية سي بوعسرية، يجب أن تكون حازما
- نظرت إليه مستغربا، وددت لو أنني أصرخ في وجهه قائلا : (أنا لا أعرفك سيدي، ما علاقتي أنا بكل هذه الأحداث التي سمعت بها فقط، وقرأت عنها كحدث تاريخي مرت به البلاد سنة 1965 وسقط خلاله عدد كبير من القتلى وترتبت عنه قرارات سياسية مؤثرة)

قلت لنفسي، لعل ما يحدث مجرد حلم، فقد
تعودت على مثل هذه الأحلام المتداخلة مع الواقع
القريب، أو البعيد، حركت رأسي علني أستيقظ من النوم
وأنهي هذه المهزلة، لكنني عوض الإستيقاظ من النوم
سمعت صوت المراقب العام يأتيني خشنا :

- سي بوعسرية ماذا دهاك تحرك رأسك و كأنك ترفض
القيام بهذه المهمة
قاطعته بصوت فيه رنة تعجب:

ليس لأمر كما تتصور سيدي المراقب العام،
أشعر فقط ببعض التعب وأنا أحرك رأسي حتى أطرده
بقاياه

وتابعت بعد لحظة صمت قصيرة:

- عُلْمَ وَيُنْفَذَ

نظرت إلى السائق الذي كان يقف بجانبني
صامتا وهو مطرق رأسه، لعنت بوعسرية وجسمه الذي
يحتضن تاريخي الجيني وذاكرتي الخاصة، ثم هرولت
خارجا، وتبعني السائق، قررت أن أترك الأمور تسير
بالشكل الذي كُتبت به، وأن ألبس ثوب الجلال، فالتاريخ
علمنا بأن الأيام دُول ولا شيء ثابت فالتحول سمة
الحياة والتغيير ناموسها وقانونها، فتبادل الأدوار وارد

في كل زمن ومكان ولا شيء يمنعه، لأن القاعدة العامة تقتضي ذلك وتحبذه، عندما أصبحت بالخارج، ركبت في إحدى سيارات الشرطة التي كان ركبها من رجال الأمن يعرفون سي بوعسرية، ويؤدون له التحية باحترام، كان السائق ملازما لي، تحرك الموكب نحو باب مراكش. لم نكد نسير إلا مسافة قصيرة حتى لاحت جموع المحتجين وكانت هناك سيارات تحترق ودخانا يتصاعد، توقف الموكب، وبدأت المواجهة، كان بوعسرية يعطي الأوامر ويوجه أفراد قوة التدخل السريع بحزم وحرفية، وكنت أنا أكتفي بالصمت داخل جسمه، ترى أية قوة قاهرة ترغم الانسان على التحول من وضع إلى آخر بالرغم من إحساسه بغياب أي توافق بينه وبين الوضع المروض عليه؟ الإشكالية صعبة ولا يمكن استيعابها، خاصة إذا كان هذا الانتقال يتم في زمن خارج السياق المعقول للواقع، وفيما نحن في مرحلة التجاذب هذه لاحت حوامة على ارتفاع منخفض، وتتابع أزيز الرصاص منها متتاليا يحصد أرواح المحتجين، وهتف بعض الأمنيين الجنرال بنفسه يقتنص المشاغبين، عندما رفعت وجهي إلى أعلى، رأيت نظارتيه الغامقتين تخفيان عينيه الحابلتين بالأسرار التي ستتكشف خلال السنوات التي عشتها أنا وجيلي ونحن أطفال، كان يمسك رشاشا ويضرب

بشراسة، وكان المحتجون يتراجعون إلى الخلف تحت هول الضربات التي تأتيهم من كل حذب وصوب وهم لا يحتكمون إلا على الحجارة وزجاجات المولوتوف، في المساء كانت المعركة قد حُسمت، وكانت مرحلة جديدة من التاريخ قد كُتبت، قال لي السائق مهناً:

- كنت موفقا يا سيدي في تدخلاتك

ابتسمتُ بسخرية ورددت:

- بوعسرية هو الذي كان موفقا

قاطعني السائق باستغراب:

من أنت ياسيدي ومن هو بوعسرية؟، كلاكما واحد تداركت الموقف ضاحكا :

- أنا فقط أمزح معك ..كان فعلا يوما عصيبا وتابع السائق وهو ينظر إليّ :

- سيدي السيارة جاهزة أظن أنك في حاجة إلى حمام ساخن ثم لحظة استرخاء في السرير حركت رأسي مؤيدا، وتذكرت ليلي تلك الأنثى الجامحة التي تنتظرني بالبيت، لكنني عدت ولعنت نفسي، كيف أسمح لنفسني بالتفكير في هذا الموضوع، ودماء المحتجين لاتزال لم تجفّ بعد، عندما ركبت السيارة كان الليل قد احتضن المدينة بأجنحة ظلامه، أحسست برعشة غريبة تسري

في بدني، أسندت رأسي إلى متكأ المقعد، بدت لي شوارع المدينة مظلمة ومصايح النيون منطفئة تماما، سألت السائق :

- الظلام يخيم على كل مكان، يبدو أن هناك عطلا كهربائيا تسبب في تعطيل كل مصايح المدينة .

رد السائق بصوت مستغرب :

الشوارع مضاءة يا سيدي

قاطعته بصوت منكسر:

- أنا لا أرى شيئا، ليس هناك سوى الظلام لم يرد السائق، لكنني شعرت بدوار غريب وألم فظيع في مقدمة الرأس مررت بيدي على عينيّ فلامست شيئا يشبه الضماضات يغطيها تذكرت عيني الجنرال، وهو يقتنص المحتجين، لكن أين هو السائق الخاص؟ والفيلا التي كنت في طريقي إليها، لماذا اختفت، وأنا مالذي ألمّ بي؟؟ ترى أين أنا؟ وهذه الضماضات ما قصتها؟ وكل تلك الأحداث الغريبة التي عشت ما حقيقتها؟؟؟ حاولت تحريك أقدامي فاكتشفت أن إحداها مكسوة بما يشبه الجبيرة، وشعرت فجأة بألم أكثر فظاعة في مقدمة الرأس، فصرخت بصوت خرج خافتا وضعيفا:
- أين أنا؟؟ سمعت أصواتا، ووقع أقدام على مقربة مني، ثم خاطبني صوت تشوبه رنة وقار :

- على سلامتك سي حسن، معك الدكتور فجر الإسلام
بدر

- من يكون حسن؟ أنا إسمي عمر بوعسرية

أنت حسن التدلاوي المناضل السياسي والفاعل
الجمعي... وأنت الآن تستيقظ من غيبوبة دامت
أسبوعا

قاطعته بصوت تشوبه رنة حيرة:

- أنا.. أنا لا أتذكر شيئا يا سيدي، ولا أعرف موقعي من
الإعراب، أشعر فقط ببعض الألم في مختلف أنحاء
جسمي.. أين أنا من فضلك؟ تابع صاحب الصوت
الوقور :

- أنت في المستشفى، وأنا الطبيب المعالج لك، حالتك
مستقرة، يلزمك بعض الوقت لتخرج من هذا الوضع

قاطعته من جديد متسائلا:

- هل أصبت في احتجاجات مارس 1965؟

ابتسم الطبيب ونظر إلي وهو يحرك رأسه :

- نحن في سنة 2003 وقد أصبت في الانفجار
الإرهابي الذي وقع منذ أسبوع بدار إسبانيا..كنت صحبة
صديقك حميد بنسحابة شافاه الله.

رانت علينا لحظة صمت قصيرة، حاولت خلالها ترتيب أوراقي، حميد بنسحابة هذا الإسم ليس غريبا عني، ولكن عمر بوعسرية وليلى وكل أولئك الأشخاص الذين عشت معهم تلك الأحداث الرهيبة، ما حقيقة وجودهم؟؟ قطع علي صوت الطبيب حبل تفكيري وهو يقول :

الكثير من المرضى يا سيد حسن يعيشون حالة هذيان خلال غيبوبتهم العميقة ويتداخل عندهم الواقع بالخيال، لكنهم يستعيدون ذاكرتهم بالتدريج، لا تنس أن التجربة كانت قاسية، وحالتك كانت خطيرة، ولكنك الآن تجاوزت مرحلة الخطر ونحن نحمد الله لأنك ما زالت بيننا.

نزلت كلمات الطبيب على رأسي كدوش ماء بارد .. أعادتني إلى سكة الحقيقة، الانفجارات التي سمعت كانت فعلا إرهابيا، وحميد بنسحابة صديقي كان يومها يتحدث بإسهاب عن أحداث مارس 1965 التي عاش أحداثها عندما كان يافعا، وعشتها أنا بعده بروحي التي كانت معلقة بين الأرض والسماء .

الدار البيضاء 2015/04/04

3 - العذراء والدم

في إحدى الأماسي الصيفية الهادئة، توقفت سيارة فخمة قرب بيت منعزل بضواحي المدينة، وترجل منها رجل تجاوز الأربعين من عمره، تبدو عليه علامة الوقار وملامح الأبهة، يرتدي بدلة قمحية اللون، إتجه صوب باب البيت، نقره بضع نقرات، وعندما فتح ظهرت على عتبه عجوز في حدود الستين من عمرها، حيته بحرارة، فرد على تحيتها وقال :

- كيف حالك يا خالتي زينب؟
- بخير، تفضل

دلف الرجل صحبتها إلى داخل البيت، قادتته إلى غرفة الجلوس، حيث استقر به الحال فوق كنبه جلدية، وسألها ضاحكا:

- كيف حال صبياتك؟
- إنهن على أحسن حال يا أستاذ، هل تريد إحداهن؟
- ليس الآن .. لكن خبريني هل وجدت لي فتاة عذراء؟

ردت العجوز بخبث:

- إنك رجل محظوظ... فمنذ أسبوعين جاءت لتعمل في أحد البيوت المجاورة صبية في الخامسة عشر من عمرها وهي عذراء...

قاطعها متلهفا:

- إذن وجدتيها
- وليس أمامي الآن سوى البحث عن الخطأ المناسبة لجلبها لك، وهذا أمر بسيط... فهي يتيمة الأبوين، أو قل مقطوعة من شجرة، ولن تمنع في شيء إذا ملأنا بطنها وجيبها.
- إنك خارقة للعادة

حدثته العجوز بنظرة ثابتة وقالت:

- أظن أن الأمر سيتطلب منك مالا كثيرا
- لا يهم، اطلبي ما تشائين، سأدفع بسخاء
- قامت العجوز، من مكانها، إقتربت منه ثم همست:
- هل أنادي لك على إحدى الصبيات... لتمرح بعض الوقت.

رفع إليها رأسه وقال:

- المهم هو العذراء، أريد فتاة عذراء بأي ثمن
- إطمئن يا أستاذ، بعد أسبوعين ستكون العذراء بين يديك
- قام من مكانه، أصلح ربطة عنقه، ثم أدخل يده في جيب بنطلونه، وأخرج بعض الأوراق النقدية، مدها للعجوز وهو يقول:
- تقضي خالتي زينب.

وردت العجوز وعيناها تومضان طمعا:

- شكرا لك ياسيدي أنت رجل سخي بحق.
- سأكون أكثر سخاء، لو قضيت حاجتي.

انسحب خارجا، ركب السيارة، ثم إنطلق بين شوارع المدينة الهادئة، كانت تتصارع في رأسه عشرات الأفكار وتُضيق الخناق حول عنقه. رأى ماضيه يسترسل في التداعي أمام عينيه، اسفلت الطريق المضاء بمصابيح سيارته، كان يبدو أمامه كمرآة تعكس سنوات عمره الملهوفة من الزمان، ذاكرته اخرجت مخزونها، وامتزج الماضي بالحاضر، تفجر في أعماقه أشجان أعوام دفينه، واشتد رنينها في ذاته، داهمته على حين غرة صورة العذراء، عندما توقف أمام إشارة المرور واصطدمت عيناه باللون الأحمر، تذكر الدم، تراقصت أجزاءه السفلى، عاود المسير من جديد أشعل لفافة تبغ ليهدي نفسه بعض الشيء، ثم غرق في بحر الماضي، لاحت أمامه أجزاء مضحية من طفولته ومراهقته وشبابه، فمضى يربط بينهما.

كان ابن شيخ القبيلة ووجيهها الحاج عمر، كان واحدا من بين عشرة إخوة وكانت أمه واحدة من بين أربع نساء، كان منطويا على نفسه، قليل اللعب مع أبناء الدوار، شديد الخجل والخوف، وأبوه لم يكن ينتبه إليه إلا لماما، تعلم في مدرسة القرية، وأكمل دراسته

بالمدينة، لكن المدينة لم تغير شيئاً من طباعه فقد ظل مفرطاً في التوقع والانغلاق، وكانت علاقته بالمرأة لا تكاد تتعدى أحاديثه القليلة مع أمه، وأخواته، ولا شيء غير هذا، بنات المدينة كن بالنسبة له غولاً مخيفاً لا يقدر على مجابهته. لما أتم دراسته اشتغل في المدينة، الشغل لم يدخل هو الآخر أدنى تغيير على سلوكه. بعد موت والده آلت له ثروة لم يكن يحلم بمثلها، وجد نفسه يدخل دنيا المال وانتبه إلى نفسه، دارت بدماعه فكرة الزواج لكن كيف؟ وهو لا يعرف ما يقدم أو ما يؤخر مع المرأة، لجأ في الأخير إلى أمه التي تدبرت الأمر، وخطبت له ابنة أحد أثرياء القرية، وفي ليلة "الدخلة" أو ليلة العمر كما يحب أن يسميها البعض وجد نفسه صوبة عروسه في غرفة واحدة، وتهادى إلى أسماعه ضجيج وصخب الأهل والأحباب وهم يرقصون، ويغنون، منتظرين قطعة الثوب المخضبة بالدم، اجتاز مرحلة الخجل، بعد حمام بارد من العرق، وأقبل على عروسه .. لكن أين الدم؟؟ الثوب أبيض لا تكاد تظهر عليه نقطة واحدة حمراء، دارت به الدنيا، تلكأت الكلمات في فمه وانساب صوت عروسه تخنقه الدموع المسترسلة على وجنتيها :

- استرني يا سيدي لو عرف أبي سيقتلني

ورد هو:

أين الدم أنت لست عذراء؟

- لقد نال من شرفي ابن عمي الذي يدرس في فرنسا، لا تفضحني وأقسم أنني سأخلص لك مدى العمر. ورق قلبه لدموعها وقال:
 - إذا تنازلت أنا عن حقي، فماذا نفعل مع الآخرين إنهم يريدون الدم.
 - المسألة بسيطة
- قالت هذا ثم أخرجت شفرة وجرحت ساعدها،
خبضت الثوب بالدم ومدته له قائلة:

- أعطيهم الدم

هكذا تزوج ورضي بامرأة ثيب، لكنها صدقته القول وأخلصت له بل "أسعدته، فانطلق في مشوار نجاح متواتر، وتفتح على الحياة وأصبح له أصدقاء وأصحاب سلخوا عنه ثوب الانطواء وجروه إلى دنيا اللذة والشهوة الحمراء. وتقدم به العمر، لكنه ظل وفيًا لحياته التي بدأها بعد الزواج.

وعرفه أحد زملائه على العجوز المدعوة زينب التي تدير وكرًا للتجارة في أعراض صبايا قاصرات وانبأه أنها تجلب لزبنائها من حين إلى آخر حسب

الطلب فتيات عذارى، فأصاب النبا في نفسه الموقع الحسن، وأسر للعجوز برغبته في صبية عذراء، فوعده أن تلبي طلبه.

وهاهي ذي تعده اليوم بإمكانية تحقق غرضه بعد أسبوعين، فليستعد ليعيش ليلة العمر.

في الليلة الموعودة تألق في هندامه وصبغ بعض الشعيرات البيضاء التي كانت تجلج فوديه، ثم ذهب إلى العجوز التي استقبلته ببشاشة وقادته من جديد إلى غرفة الجلوس، وسألها بلهفة.

- أتراك جلبت العذراء كما اتفقنا؟
- بالطبع وقد هيأتها لك، لتبدو كعروس في ليلة دخلتها.
- حسنا فعلت يا امرأة .

قال هذا ثم أدخل يده في جيب جاكيتته البنية، وأخرج رزمة من الأوراق النقدية رمى بها للعجوز وقال:

- تفضلي يا خالتي زينب
- شكرا ياسيدي

قدم لها أيضا علبة صغيرة كان يمسكها بين يديه وتمتم:

- هذه الهدية للفتاة... قدميها لها.
- سأذهب إليها كي تستعد...
- انسحبت العجوز، والتحقت بالصبيبة التي كانت تنتظر بداية المجزرة بإحدى غرف النوم، قدمت لها اللعبة وقالت:
- خذي هذه الهدية .
- فضت الفتاة غلاف اللعبة، كانت سلسلة ذهبية جميلة.
- ضعيها حول عنقك... وخذي هذا المال ثم استعدي
- قالت هذا، ومدت لها جزءاً من الأوراق التي تسلمتها منه، ثم خرجت قاصدة قاعة الجلوس.
- كان ما يزال ينتظر، طرق سمعه صوت العجوز وهي تقول :
- هيا يا سيدي الفتاة في انتظارك قام من مكانه، تبعها، توقفت، وأشارت إلى الباب، ثم قالت:
- يمكنك أن تفتح الباب وتدخل
- وضع يده على المزلاج، ضغط عليه، دفع الباب ودخل، وجد نفسه أمام صبيبة في ربيعها الخامس عشر، ذات شعر أرجواني يتهدل على كتفيها العاريتين، وعينين عسليتين تفيض البراءة من بؤبؤيهما، وجسد طفولي ينضج بالطهر. إقترب منها لمس جيدها براحتيه

وقال: "ما اسمك يا بنية"، وردت الصبية: "اسمي سلمى"
صمت لحظة وقال: "هل أفهمتك السيدة زينب كل شيء"،

- أفهمتني وأنا موافقة.

جلس على السرير، طلب منها أن تخلع ثيابها..
فعلت، لاح له جسدها البلوري، تسلل وحش الشهوة إلى
دواخله، اقترب منها، من جديد، لمس صدرها بيده.
تراجع فجأة الى الخلف كمن لسعته عقرب، أمسك رأسه
بين راحتيه، وصرخ: "لا، هذا غير ممكن لا لا"..
نظرت إليه الفتاة بخضوع وقالت:

- ماذا حدث يا سيدي؟؟

أعاد اللمس مرة أخرى، تكررت، نفس الحالة،
ما الذي حدث يا ترى؟؟

إختلطت الامور أمام عينيها، من أمامه الآن، هل
سلمى، أم ابنته سناء؟ إنه لا يكاد يلمس جسد سلمى حتى
يرى ملامح ابنته سناء قد تمثلت فيها. إرتدى على
السرير كالكلب المسعور، اضطرب، رفع رأسه الى
الفتاة وقال:

إبسي يا بنيتي ثيابك، مكانك ليس هنا، ستجدين
أختنا لك في بيتي، خرج إلى العجوز سألته:

- هل نلت الوطر؟

قابلها بوجوم متجاهلا سؤالها، وقال:

- سأخذ الفتاة معي.

- هل ستتزوجها؟

- لا سأتبناها. ستعيش مع ابنتي وزوجتي.

ضحكت العجوز وقالت:

- هل جننت؟

لم يلتفت إليها وخرج صحبة الفتاة.

نشرت هذه القصة بجريدة العلم المغربية أبريل 1986

4 - صالح

دوار السبت كان يبدو هادئاً، وغبش الصباح
ينقشع عن سمائه رويداً. عبر الحقول الجرداء الممتدة
ملء الأفق، لاحت بعض الأشجار العارية ومناطق من
نبات الصبار .

عند ربوة لالا تُيوشَانِيْن وهو إسم يطلقه أهل
المنطقة على شجرة تعلو الربوة،، بدت مدرسة الدوار
بثوبها الأبيض، يحوطها سور من الطوب والحجارة
أقامه الأهالي، وعلى بعد أمتار منها، قام بئر عمومي
حفرتة السلطات الفرنسية إبان استعمارها للمغرب،
قديماً كانت مروحته الهوائية تدور فتنقل الماء الى
المجاري الإسمنتية، لكنها مع مرور الزمن تقادمت ولم
تعد تعمل، فأصبح الأهالي يستعملون الدلاء للحصول
على الماء، وهناك عند حافة الطريق المزفت المؤدي
الى المدينة وقف محمد أحرق الدوار، وهو طفل
لايتعدى عمره العشر سنوات يقذف الكلاب بالحجارة
تارة، أو يمارس طقوسه الغريبة تارة أخرى. أطفال
الدوار كانوا ينحدرون نحو المدرسة متأبطين محافظهم
القديمة وأثر عمش النوم مايزال على عيونهم، كان
صالح بينهم يمشي وحده الهويناء، محفظته الصغيرة
تدلى خلف ظهره، يحك يديه المتسختين الى بعضهما

حتى يتدفأ، وهو يتجشأ رائحة الزيت البلدي (زيت الزيتون) الذي اعتاد على تناوله عند الإفطار.

وداخل ساحة المدرسة بدا المعلمون بميداعاتهم البيضاء يذرعون ساحتها جيئة وذهابا في انتظار موعد الدراسة. أما المدير فكان في مكتبه الصغير، منكبا على إعداد بعض الوثائق التربوية والإدارية كعادته.

اتكأ صالح على السور الطوبي مبتعدا عن التلاميذ، الذين إنصرف بعضهم الى الحديث في زمر، وانبرى بعضهم الآخر في اللعب. عيناه كانتا تلاحقان جحشا صغيرا يلهو ويتمرغ في التراب قرب أمه المنصرفه الى أكل بعض الحشائش القصيرة. هاهما الآن تنتقلان الى ملاحقة دجاجة منفوشة الريش تتبعها كتاكيتها. إن مثل هذه المشاهد تأسر فكر صالح، وتثير في داخله نشوة غريبة، فقد كان يجد متعته مع الحيوانات أكثر مما يجدها صحبة الأطفال من سنه، فهو مثلا يحب مداعبة حمار جده. جده هذا الذي يرتدي ثلاث جلابيب وبرنوسا خلال ايام الله كلها دون أن يميز بين صيف وأشتاء، هذا الأخير كان يعنفه كثيرا ويطارده متى رآه يداعب حماره...

حل موعد الدراسة، بدأ التلاميذ يدخلون مصطفىين الى ساحة المدرسة. انضم صالح الى زملائه الذين وقفوا أمام باب القسم.

داخل حجرة الدرس كان ساهما كعادته لا يعرف ماذا يدور حوله أويجري، كان التلاميذ يرفعون أصابعهم باستمرار، وأصواتهم ترتفع وهو لا يفعل شيئا. إنه عامه الأول بالمدرسة وهو يعيش حالة ارتباك وتشتت، كثرة التلاميذ كانت تمنع المعلم من الاهتمام بأمره.

كان وجهه الصغير واجما، وعيناه القسطلتان زائغان تبحثان عن موقع دون جدوى، وأنفه الدقيق يفرز مادة المخاط المنساحة على شاربيه، ترى ماذا يدور بخلده...؟

اليوم قبل ان يغادر البيت في الصباح، عاش من جديد فصول الخصومة المعتادة بين والديه، وتكررت نفس المشاهد التي ألفها، فأمه تبكي وجلا، وأبوه يصب عليها جام غضبه، ويطوح بعصاه الغليظة في وجهها، رافعا عقيرته بالصراخ العاصف، لم تكن هناك قوة تستطيع أن تمنعه عنها فهو مالكها وصاحب الحق فيها، ناهيك على أن افراد أسرتها فوضوا أمرها كليا له، حتى يُقوّم نشوزها، وهي لا تملك سوى السمع والطاعة، لم

يكن صالح يفلت من وحشية أبيه فكثيرا ما بصق في وجهه، او ركله بقدمه وهو يردد لازمته المعتادة.. ابتعد يا ابن العاهرة... وقد كان كل يوم يمر، يزرع فؤاد الصغير حقدا وضغينة على والده، بل انه تمنى له أكثر من مرة الموت حتى يرتاح، وترتاح معه أمه المغلوب على أمرها.

إنتهت الحصة الدراسية الصباحية، واندفع التلاميذ كالعادة نحو باب القسم يستحثون الخطى الى دورهم، فعصافير بطونهم ترقزق وعليهم ان يسكتوها بالخبز والشاي ...

اجتاز صالح بوابة المدرسة وسط نفر من أصحابه وهو صامت، كان يسير مطأطأ الرأس، لكنه سرعان ما رفعه عندما مرق بالقرب منه بعض التلاميذ راكضين نحو البئر، كان هناك جمع غفير من النساء والرجال يكونون دائرة وأعناقهم مشرئبة نحو شيء ما، وعلى مقربة منهم بدت سيارة الدرك جاثمة، اندفع صالح بوازع غريزة حب الإستطلاع نحو الجمع ومالبت ان إنسل من بين الاقدام، ووقعت عينه على الشيء الذي إلتهم حوله الناس، كان جسد أمه وقد تبلل كلياً بالماء، واكتست بعض مناطقه ببقع من الوحل. إندهش أول الأمر ولم يصدق عينيه وتردد برهة

قبل أن يندفع نحو الجسد المسجى، فيحركه بقوة صارخا
ملء صوته: (أمي أمي فيقي أنا صالح)

دون ان يتلقى جوابا ..حاول أحد الدركيين أن
يبعده عن الجسد بلطف زائد، لكنه تشبث به، ودفن
وجهه في الصدر الحبيب الذي طالما ضمه، وانسلت
الدموع حارة من عينيه . كيف يحدث هذا؟ من سيدفع
عنه الآن شر والده ؟؟ من سيقف وحشيته؟..لقد قُضَّ
مضجعه، وقُصَّت أجنحته وليس له بعد اليوم الا السماء.

هذه الشجرة توجد بدوار السبيت بالعشاشكة
منطقة السماعلة دائرة وادي زم.المغرب

محمد محضار وادي زم يناير 1986

نشرت هذه القصة بجريدة العلم يوم الأربعاء
12فبراير1986.

5- لعبة الحياة

ما أشبه الأمس باليوم، نفس اللعبة تتكرر ..كلنا
قاييل وهابيل، كلنا صالب ومصلوب وقاتل ومقتول
..أنت أنا ..نحن ..هم.. جميعنا نؤدي أدوارنا باتقان في
مسرحية إسمها الحياة، بل قل مهزلة اسمها الحياة..ما
من شيء نحبه إلا ويرافقه ضرر، فالورد لا يخلو من
شوك والنور لا تفارقه نار ..والخمر يتبعه عذاب الدنيا
والآخرة..الحقيقة تشرق باهتة حوانا، غمام أنفسنا
يجبها عن أنظارنا، العدل نلهث وراءه منذ الأزل
..نراه خلف زجاج سميك ولا نملك سوى التحسر
عليه...

(الحقيقة والعدل تصبحان شيئا مجردا ..ولا
يدركان الا في حدود الحلم، ويغيبان عن عالم الانسان)

مثل هذه التدايعات كثيرا ما تنهمر على رأسه
فتراه شاردا في مدرج الكلية أوفي المطعم الجامعي،
أوفي قاعة المراجعة، لا يكاد يحس بما يجري أو يدور
حوله. الدنيا تبدو له غريبة. كل شيء فيها يسير
بالمقلوب..ناس تنام على الدمقس والرياش، وناس تنام
في العراء، أغبياء يتسلقون درجة المجد والشهرة .،
ومبدعون يعشش العنكبوت عليهم وعلى إبداعهم. لا
أحد يريد أن يفهم، لا أحد يحاول ان يغير مجرى

الأشياء.... الحياة تستمر مغبشة والضياح يتوالى في شتى ألوانه وجبة فاسدة يتناولها رغما عنه كل يوم.

جرثومة الاغتراب تعشش في كويرات دمه، تسري في جوارحه، تحيل حياته الى مزيج من التناقضات والتعارضات، تقضي به الى متاهة بلا مخرج، فتراه يتلمس خطاه في الظلام، يخط في كل الاتجاهات كالخفاش.

كل مرة يحس ان فرديته ملغاة، وأنه موجود من أجل اللاوجود.. وأن دوره في مسرحية الحياة لا يعدو ان يكون دور شخص جامد لا يتحرك أو يتكلم.. إنه أقل من كومبارس بئيس.. من اختار له هذا الدور؟ أتراه والده الذي جن في منتصف عمره بعد أن فرت زوجته الثانية مع عشيق لها الى مدن الجنوب؟ أم تراها امه التي سحقها القطار قبل سنوات حين كانت في طريقها الى الموقف عارضة نفسها كصبانة، تغسل وسخ العادي والبادي مقابل دريهمات تعيل بها اطفالها الذين رمى بهم والده إليها صحبة ورقة الطلاق؟ أم تراه القدر وحتميته التي لا مناص للهروب منها فهو فوق الجميع؟ كل هذه الأسئلة تظل معلقة .. ويظل هو .. غارقا في رحلة تيه بين شوارع المدينة ومدرجات الكلية وكراسي الحدائق العمومية.

الإنعزالية أصبحت ممارسة يحرص عليها
والاحباط غدا شعاره الخالد .. إنه يرفض التعايش مع
كل هؤلاء الذين يحيطون به .. وإن كان علماء النفس
يقولون بان الانسان حيوان إجتماعي بطبعه... فهو قد
تحول الى حيوان انعزالي ولم تعد العدوى الوجدانية
التي تنتقل بين افراد المجتمع تجد استجابة لديه.

مراكش 1981.

6 - رحلة الصمت

ينساب القطار عبر القضبان الحديدية
كالثعبان... صفيره يتعالى كلما اقترب من إحدى
المحطات .

كنت قد انزويت بإحدى المقصورات مستندا على
متكأ المقعد الجلدي، وعيناي تتابعان عبر زجاج النافذة
توالي المناظر الطبيعية وانسيابها.. كان يجلس بجانبني
كهل أصلع وبمواجهتي زوجان في مقتبل العمر، كان
الكهل غارقا في صمته يتصفح مجلة قديمة، أما
الزوجان فكانا يدردشان مع بعضهما ويتبادلان
الضحكات..

كنت قد ركبت القطار قبل لحظة من محطة
"الوزيس" بالدار البيضاء.. بعد زيارة وجيزة للأهل
حصلت خلالها على شحنة عاطفية تساعدني على
مقاومة الصمت وجفاف الأيام بالمنفى الجبلي الذي
أعيش به.. كان القطار يطوي المسافات ومعه تطوى كل
اللحظات الجميلة التي صرفتها منشرجا بين الأهل
والخلان.. ومع توالي المحطات التي كان القطار يتركها
خلفه (برشيد، سيدي العايدي، بوفروج، سطات....) كنت
أحس بأنني أقرب من من بداية أيام صمت جديدة...

نزل الرجل الأصلع بمحطة بنجرير ثم أخذت
مكانه امرأة أمازيغية متوسطة العمر صعدت

لتوها. الزوجان واصلا حديثهما وغزلهما غير أبهين بأحد أما أنا فواصلت رحلة تيهي الذهنية ... (إنقضت الآن عشر سنوات على تعييني بمنطقة جبالية بنواحي مراكش. ما زلت أعزبا أعيش على أعتاب الحلم.. لاشيء يسمح لي ببداية حياة عادية، كم أغبط هذين الزوجين على سعادتهما).

يصل القطار الى محطة مراكش.. يتسارع المسافرون نحو أبواب العربات مغادرين مقصوراتهم، كل له وضعه الخاص وله جنته او جحيمه، تأخرت في النزول لانني كنت أحس بفداحة ما ينتظرني بعد حين سأركب سيارة "التاكسي" نحو "الفيلاج" الذي يقع اسفل الجبل.. ثم أقطع مسافة يعلم الله وحده كم هي عسيرة وصعبة على ظهر بغل، إختص في صعود المنعرجات الجبلية.. سأصل إلى القسم وأعانق اليباب القاتل كالعادة، وتتكرر تلك الدورة الروتينية .. تلاميذ في منتهى البؤس وأنا في منتهى الحرمان نمارس لعبة التعليم والتعلم في انتظار الذي سيأتي، او لا يأتي . عدت إلى خلدي وجدت مقصورات القطار قد أصبحت خالية هرولت نحو الباب أجر ورائي حقيبتني الصغيرة، وأذبال خييتي.

الدار البيضاء أبريل 2009

7- اللحظات الميئة

الألوان تتماوج أمام عيني في حركات تلاحقية،
الأحمر البنفسجي، الكاكي، القمحي وألوان أخرى،
لساني يتجول على ضفتي شفتي دون توقف، درجة
حرارتي ترتفع، أصوات غريبة تنطلق في أعماقي،
أحس بمغص في بطني، وألم في رأسي، نظراتي زائغة
تلاحق أجسام الحسنات المارات أمام المقهى، ارتباكي
أفرغه في مداعبة منفضة السجائر بأناملي . حنين
وشوق كبيران إلى أشياء قديمة يرسمان معالمهما على
سحنتي،

مريرة هي اللحظات، وثقيلة تمر، وأنا أزدرد
كومة حزن وإكتئاب.

شحاذة عجوز، تقوس ظهرها وضمير جسمها -
سمعت أحد رواد المقهى يهمس لصديقه في شأنها " لقد
كانت شيخة كبيرة.. أنظر ماذا حل بها " - تمد لي يدها
المغضنة ولسانها يسترحم، أشمئز من منظرها لكنني
أنفذها بضع سننيمات..

صمت أيام رهيبة قد ثوت ينزل بكل ثقله على
رأسي..تعلق نظراتي الزائغة بحدائي المحمل
بغبار البادية التي أدرّس بها قبل لحظة من الآن غاللت

فتاة، فقالت لي بصوت ساخر " سير ديها غير في صباطك الموسخ " ثم ركبت سيارة كانت تلاحقها من الخلف، يظهر ماسح أحذية صغير السن على حين غرة، أسلمه حذائي كي يلمعه، يشغل الصبي بكل عناية وجدّ ..بعد برهة أنظر إلى حذائي بكل إعجاب..

أترك مكاني بالمقهى، أشق طريقي بين شوارع المدينة، بخطواته لا يرسو على اتجاه. المدينة تعيش مهرجان الغروب، الشمس ثلثة تعب كؤوس الشفق، معانقة الأفق باستسلام ..وخيوط الظلام تتسرب بتتابع إلى السماء .

سأهيا أمشي، تصطدم قدماي المتخذلتان بصندوق قمامة، تنط منه قطعة سوداء، تسرع هاربة ومواءها يكسر السكون، رعشة إشمئزاز تعترني جسدي النحيف، القطط السوداء فال شؤم..هذا ما رددته أمني على مسامعي باستمرار إبان طفولتي، أقرأ البسملة وأتابع سيرتي.

البرد يلفع وجهي، يلسع أرنبة أنفي..خطاي تصبح حثيثة..أصل البيت الذي أنقاسمه مع صديقي عزوز، المشتغل بإحدى ثانويات المدينة .. أدلف الى الداخل ..مصباح غرفة عزوز مضاء ،ألجها.عزوز صلبة صديقه "أرحيمو " التي تُدرّس صحبته. كنا

يحتسيان كؤوس الراح.. ألقى إليهما بالتحية، ثم أنثني
خارجا، صوت ارحيمويطرق أذني :

- ألا تشرب معنا كأسا ..ولو لمرة واحدة؟

- تعلمين انني لا أشرب أو أدخن

يعلق عزوز ساخرا:

- بوركت ايها المتصوف المخدول

أبتسم دون أن أرد، ثم أخرج.. تحتويني
غرفتي.. أستلقي على السرير تضطرب الخواطر في
صدري.. تقبل الكلمات والعبارات على زورق الماضي
و تتزاحم عند بوابة ذهني، تنتابني الرغبة المعتادة في
الاحتراق على الورق، أهرع إلى مكتبي أصب حبر
قلمي على القرطاس، أكتشف أنني أتحوّل إلى ألفاظ
ناطقة تشع بالكآبة، كم أمقت الكآبة لكنها تفرض نفسها
ضيقة ثقيلة على كل ما أكتب.

وادي زم 1987/11/17

8 - شاعر يحيي

شاردا أمشي على الرصيف، تقبض أصابع يدي
اليسرى على جريدة يومية، شبق غريب يلهث في
أحشائي، أحلام من نوع سوف أفعل، تترامى على ذهني.
الخطوة تلد ثانية وإتجاهي غير معروف.

صامتا أتوقف قرب محطة المسافرين، أحك
مؤخرة رأسي بأنامل يدي اليمنى، ألعق شفتي بلساني
حتى أبرد جفافهما.

الضجة تنتقل عبر جوانب المحطة، منبهات
الحافلات تحطم السكون . الحمالون يعرضون خدماتهم
على أصحاب الأمتعة . المتشردون والمتسولون
يعترضون سبيل المسافرين مادين أيديهم.

نظراتي الفضولية تطارد الحسناوات المسافرات،
تغازل بصمت هذه وتلك . كثيرون من عشاق النساء
يتخذون من المحطة مقرا لسد حاجياتهم، كهلة ثخينة
الجسم تحمل كيسا بلاستيكا ضخما، تقترب مني،
صوتها ذو الرنة الأطلسية يطرق أذني:

- هل أستطيع ان أسألك يا ولدي الله "يرضي عليك"؟؟
- تفضلي
- في أي ساعة تتحرك الحافلة المتجهة نحو دمنات؟؟
- لا أعلم يمكنك أن تسألي قاطع التذاكير أو أحد الحمالين.

تسأل الكهلة أحد الحمالين ثم تعود من جديد الى الإقتراب مني وهي تقول:

- قال أنها لن تتحرك قبل الساعة الواحدة.

لم أعلق على كلامها، تتابع الحديث:

لقد جئت لزيارة إبنني.. إنه يعمل مهندسا وقد تزوج منذ بضعة أيام بمعلمة، وددت أن أبارك له لكنه غير عنوانه ومقر عمله فلم أجده، إنه يتهرب مني رغم أنني أمه..

دون أن أنبس بكلمة، أبتعد عن الكهلة، وأتابع المسير. مشاكل من هذا النوع مللت سماعها.

أدخل مقصفا لبيع العصير، فتيات بميدات المدرسة، يضعن أحمر الشفاه، والبودرة، وطلاء الجفون، يجلسن إلى طاولات المقصف، شبان يرتدون سراويل فضفاضة وأقمصة ملونة يحاذونهن في الجلوس. بعضهم وبعضهن كان يدخن ، أجلس بمواجهة فتاة المقصف العاملة خلف الحاجز الخشبي، نظراتها تلتهم وجهي الشاحب، تتسلل إلى ياقة قميصي ثم السلسلة الذهبية التي تحيط بعنقي تسألني بصوت ناعم:

- ماذا تشرب ؟

- عصير موز من فضلك.

تمر دقائق، تقدم لي عاملة المقصف كأس
العصير. فتاة في حدود العشرين تقترب من مكاني
تجلس بمواجهتي، شعرها الأشقر المعقوص يبدو
ساحرا، بشرتها الناعمة تبعث الدفء، تخرج من
محفظتها علبة سجائر، تمسك لفافة تبغ، تودعها بين
شفتيها المطليتين بالروج تسألني عود ثقاب،
أعذربخل فأنا لا أدخن، تسأل فتاة تجلس على يمينها،
تلمي طلبها. تنقث ذات الشعر الأشقر دخان سيجارتها
بانتهاء، تضحك في وجهي كلما التقت نظراتنا. تمر
دقائق على هذا الحال. أخرج صحبتها ، نستقل سيارة
أجرة إلى شقتي ، تسألني الفتاة اثناء الطريق :

- هل تعيش وحدك؟

- نعم منذ خمس سنوات والداي يعيشان بدكالة

- أنا طالبة جامعية أسرتي تقيم بسطات.

التاكسي يتوقف، بمعية الفتاة أنزل، أنقذ السائق
أجره ، صحبتها أسير على الرصيف. نتخطى باب
العمارة حيث توجد شقتي. نتسلق الدرج بخفة، أخيرا
نصل، ندلف إلى الشقة، تطوف الفتاة بين غرفها الضيقة
. تجلس إلى مكتبي، تبحث ببعض الأوراق المتناثرة

عليه، لا أعارض، تقرأ إحداها بصوت مرتفع، أبتسم في وجهها، صوتها يتسرب دافئاً إلى مسامعي:

- هل تكتب الشعر؟
- منذ زمن بعيد
- أنا أحب الشعر كثيراً، أقرأ لنزار قباني والبياتي وأدونيس والمجاوي، أبحث لحظة، أمسك بكتيب صغير أقدمه لها ضاحكا :

هذا ديواني الأول طبعته مؤخراً، أقدمه لك هدية

تنفّرج شفتها عن ابتسامة ثم تقول :

- إنها المرة الأولى التي أرافق فيها شاعراً إلى بيته...

26 غشت 1986

نشرت بجريدة العلم غشت 1986

8 - شرود من نوع خاص

ينتابني دائما حزن غريب، كلما فكرت في أحداث مرت بي وعشتها دون أن أستطيع فهم سياقها، أو إدراك غايتها، هي أحداث بوقائع غامضة، يصعب على الانسان العاديّ تقبّلها، أو فهمها، لأنها ضاربة في الغرابة وتفسيرها بطريقة علمية أو واقعية، يقود مباشرة إلى مستشفى الحمّاق، كثيرا ما أتساءل: هل هناك منطق يحكم حياتنا؟ هل هناك ضوابط تجعلنا نعيش وفق منهج معيّن يتفق مع السائد من أعرافٍ وتقاليد؟ الأفكار الرهيبة التي تحاصرني في لحظات معيّنة، تجعلني أحس بانفصام قوي في شخصيّتي، هناك شخصيّة دخيلة تُحاصرني وتُدفعني إلى ارتكاب حماقات وتخلّق لي حزازات مع محيطي الخاص والعام، كل معارفي يشتكون من تصرفاتي وسلوكي العدوانى نحوهم، ردود فعلي كما يقولون: تتسم بالانفعال وعدم ضبط النفس، أعلم أنني لست أنا من يرتكب كل هذه الصفاقة والسفاهة، بل تلك الشخصية الطفيلية التي تدفع بي إلى رؤية العالم بسودوية كبيرة وتجبرني على ممارسة ذلك الكمّ من العدوانية نحو الآخر دون أن أستطيع كبّنها، كانت لديّ ميولات قويّة لتدمير كل ما يمت بصلة للجمال، كنت أحس بأن الأساس في الحياة هو الشر وأن الخير مجرد استثناء نلجأ إليه في لحظات الضّعف والعجز حتى لا يتمّ القضاء علينا من طرف من هم أشدّ

قُوَّةٌ مِنَّا وأكثر عدَّةً وعدداً، أتذكر دائماً تلك القولة الشهيرة لنتشة: " الأخلاق كلمة لا معنى لها إلا في قاموس العبيد، والفضيلة عُملة يشتري بها الضُّعفاء السَّعادة في الحياة الدُّنيا أو في الدَّار الآخرة.. " فهي شعار الشخصية الثانية التي تحاصرني دون قدرة مني على الوقوف إزاء هذا الحصار الضَّارب الذي يقيد حركاتي ويجعلني أتحرك في الاتجاه الذي ترسمه لي وتُلح علي في الخضوع لناموسه دون نقاش أو محاولة فهم، عندما أكون في الشارع أرى النَّاس مجرد وجوه متشابهة لا ملامح لها تتأمر علي، وتنسج القصص والحكايات حولي ، أراهم جميعاً تافهين لا يصلحون لشيء لأنهم مجرد أرقام في معادلة لا حلَّ لها ، وكم أتمنى لو كانت لديَّ قدرة كالليغولا وجرأته في سفك الدِّماء، فأفتك بهم فتكا وأقطَّعُ أوصالهم، دون أن يرفَّ لي جفنٌ أو يهتَزَّ قلبٌ، الأمور إلى حد الساعة مازالت تدور في رأسي، فتراني أنصت لذلك الصوت الرَّهيب يدعوني إلى القفز على كل شيء والبحث عن وسائل تدمير وتخريب حقيقيَّة، ومحاولة الخروج عن أعراف الجبناء.

اليوم وأنا جالس ، بصالون شاي راق، غارقاً في تطبيقات هاتفي الخلويِّ أمارس لعبة الإبحار، في عالمي المجنون، إذابي أجد رسالة نصية بدت لي غريبة

المصدر تقول: " أنت شخص بقدرات خارقة ، بقليل من التركيز تستطيع أن تغير مُجريات الأحداث وتضع سياقات جديدة لحياتك و حياة الآخرين"

لم أستسغ الأمر، بدا أشبه بنكتة ثقيلة ، أو مزحة يمارسها بعض مجانين النيت أو الهاكرز، قلت لنفسي: " التجربة كفيلة بإثبات صحة الرسالة الملوغمة ، يكفيني التركيز وانتظار النتيجة " نظرت حولي، كان يجلس بمواجهتي كهل خمسينيّ صلبة فتاة دون الثلاثين، كانا منسجمين يجمعهما حديث يبدو حميميا، وعلى شمالي كان هناك ثلاثة شبّان يثرثرون بصوت عال، أما على يميني فكان يجلس رجل في أواسط العمر تعلو سحنته هالة من الكآبة، قررت أن أبدأ تجربتي مع هذه المجموعة الصغيرة من زبائن صالون الشاي، ولتكن البداية بهذا الرجل الكئيب، أريده ضاحكا عابثا، يتحرش بصديقة الكهل الخمسيني، أما الشبان الثلاثة فاخترت لهم دور المتفرج المُستمتع بما سيحدث، هكذا فكرت ورگزت، ثم انتظرت أن تقع الواقعة، مضت دقائق وسرعان ما تغير سلوك الرجل الكئيب وإذا به يشير بيده للفتاة الجالسة مع الكهل، ويغمزها بعينه، تجاهلته الفتاة ، لكنه تمادي في وقاحته ، وقام من مكانه واتجه نحوها، حتى إذا أصبح بمواجهتها هي والكهل الخمسيني رفع صوته قائلا:

- فتاتي الجميلة ماالذي أعجبك في هذا الكهل المتداعي،
حتى تُضيّعي معه وقتك؟
ردّت الفتاة بغضب:

- وما شأنك أنت حتى تتدخل فيما لا يعنيك ؟

نهض الكهل واقفا من مكانه، ودون أن ينبس بكلمة واحدة، صفع الرجل الكئيب بقوة، ثم تشابكا معا ودخلا في صراع عنيف، وتعالى صراخ الشبان الثلاثة وهم يضحكون من المشهد، أما أنا فاكتفيت بالصمت، انتهى الصّراع بتدخل صاحب المقهى وعمّاله للفصل بين الغريمين، غادرت المكان بهدوء تام، ولدى إحساس بأنني ربما سخرت هذه الهبة في عمل غير مقبول أخلاقياً، تحرك الصوت الآخر المؤثر داخلي " ومتى كانت الأخلاق تعني لك شيئاً؟ هي اختراع الضعفاء لاتقاء شرّ الأقوياء، وأنت الآن قوي تستطيع أن تفعل ما تريد بالقطيع ومن يسوس القطيع " لكنني استدركت " أنا إنسان وهؤلاء بشر مثلي، ولكنهم ضعفاء وتفهاء " .

قمت من مكاني وأنا غارق في بحر من التساؤلات والهواجس، انسحبت بهدوء بعد أن دفعت ثمن مشروبي استقبلني الشارع بصخبه الرهيب، أحسست بصداع قوي في رأسي، وسرعان ما انتابتي أفكارى المجنونة بقوة لم أعدها من قبل، لعنت

الشَّيْطَان، ولعنت كل قوى الشر الكامنة داخلي، لكنها كانت أقوى مني، وهتف بي ذلك الصوت المؤثر " ماذا سيقع لو اختلَّ النظام العام للشارع، وفكر هؤلاء الأشخاص الذين يرتادون الشارع وأولئك الذين يرتفقون المصالح الإداريّة، في ممارسة شغب مدمر للذات، يكفي أن تفكر أنت في ذلك، عندها تقع الواقعة وتبدأ الفُرجة، أنا لست شريرا حتى أقترف مثل هذا الفعل، لن أفعلها ولو كلّفتني ذلك عمري، فكَرْ ولا تتردد، القَطِيع هو سبب البلاء والرداءة.

رباه الشر يسكنني وأنا غير قادرٍ على التحكّم في نفسي، كنت قد قطعت مسافة طويلة وأنا على هذا الحال، تتنازعني مشاعر مضطربة ومتباينة، وجدت نفسي فجأة في وسط أكبر ساحة بالمدينة، ولمحت حينها الترام يتوقف وينزل منه كثير من الناس، و يأخذون إتجاهات مختلفة، وفي لحظة فارقة توقفت، ثم نظرت حولي، كان الضغط قد زاد عليّ وأصبحت غير قادرٍ على التحمّل، هل أفعلها وأتركهم يأكلُ بعضهم البعض، وألبي نداء ذلك الصوت اللعين يدعوني الذي تنفيذه هذا الأمر دون تردد، أم أتمرّد عليه وأدفع الثمن، ليعيش القَطِيع ويستمر في مسيرته العشوائية يمارس الفوضى الغير الخلاقية. فجأة صرخت دون سابق إنذار: " أيها الناس، أيها القَطِيعُ الشّارد بكلمة مني، سنُدمّرون

بعضكم، أنا أضغط على نفسي من أجلكم ، وأنتم عن هذا الأمر غافلون تعيشون حياتكم بلا مبالاة "، نظر إلي الناس باستغراب، وقال بعضهم لبعض : "هذا رجل مجنون ، أطلبوا له رجال الوقاية المدنية "، تراجعت إلى الخلف ثم هتفت: " رجال الوقاية سيأتون لحمل جثثكم المتعفنة أيها القطيع اللئيم ". فكرت دون تردد: ليأكل بعضهم بعضا .

محمد محضار يونيو 2015

10 - زمن التفاصيل

عندما استيقظ هذا الصباح إكتشف أن أشياء كثيرة ظلت غائبة عنه سنوات طويلة، دون أن تحظى بانتباهه أو تنال نصيبا من اهتمامه، فالتفاصيل لم تكن تعني له شيئا، لقد اعتاد على رؤيا شمولية للأشياء وظل وفيًا لمبدأ الكل لا الجزء.. فجمال الزهرة يكمن فيها لا في لسيناتها وباقي مكوناتها، وجمال المرأة يدرك بنظرة بانورامية شاملة ، كذاك الحب فهو يُقذف في الفؤاد نورا متوهجا ليزرع فيه الدفء والفرح ويغدي الروح بنسماته.

لكنه الآن يجد نفسه يكتشف عالما جديدا ، تتسיד فيه التفاصيل، وتسيطر الأجزاء بدرجات متفاوتة وعمق متنوع ومختلف، عالم تبدأ الاشياء فيه صغيرة وغير ذات معنى لتصبح فيما بعد ذات قيمة كبيرة. ليس مهما أن يدرك ذلك في وقت متأخر، فالتجربة تكسب قيمتها من وشم السنين ونضج الشخصية.

كانت البداية بزواجه التي عاشت برفقته ربع قرن دون أن يتفحص تفاصيل وجهها وجسدها، وها هو يكتشف هذا الصباح وهي تجلس قبالة على مائدة الإفطار، أن الصباغة لم تعد قادرة على اخفاء بياض شعرها، كذلك المراهيم والدهون لم يعد لها مفعول في إخفاء خطوط التجاعيد المحفورة على جبينها، بل أكثر

من هذا يكتشف ان تحت ذقنها خالة سوداء لم ينتبه إليها قط

كما أن جسمها لم يعد رشيقا ومسّته السّمنة والثخانة بشكل رهيب، وجمالها يكاد يُصبح في خبر كان.

عندما نزل إلى الشارع صدمه مشهد العمارة التي عاش بها أكثر من نصف عمره ، فجدرانها كساها السّخام ، ومحيطها اكتسحته الأزبال والمياه العادمة المنتشرة بشكل مقرف تساءل: " كيف مرت كل هذه السّنون وهو يعيش خارج سياق التفاصيل؟ " كيف تأتي له أن يُجمّد عقله وقلبه، ويكبج جماح رغبتها في تدقيق شامل لتفاصيل الأشياء؟؟ على كل حال الأوان لم يفت بعد، ومازال أمامه الوقت الكافي لتحقيق ذاته وتغيير نظرته للعالم.

ركب سيارته القديمة، وانساب بين شوارع المدينة، أحس بانتعاشة غريبة وهو يكتشف تفاصيل متعددة كان يمر بها بشكل يومي دون أن يهتم بها، أو ينتبه إليها ،هاهو يعيد ترتيب أوراقه ويدخل غمار حياة جديدة تدفع به إلى التّفاعل مع الواقع بشكل أكثر عقلانية وواقعية، بعيدا عن كل المؤثرات الخارجية، أو إسقاطات الذات.

عندما وصل بناية الإدارة التي يشتغل بها، انتبه لأول مرة إلى اللوحة الموجودة في مدخلها وقرأ مضمونها بتدقيق ثم دخل وعيناه تحملقان في كل ما حوله وكأنه يكتشفه لأول مرة الممر الطويل، البساط الأحمر الممتد على طوله، أبواب المكاتب البنية اللون، اللوحات التشكيلية المعلقة على الجدران ، ولمبات النيون البيضاء المشتعلة.. توقف أمام باب مكتبه، وقرأ اللافتة المثبتة عليه : " محمد علوش رئيس الموارد البشرية".. هذا شيء جميل وبريستيج لم يهتم به من قبل.. دفع الباب وولج داخلا، أحس بان المكان فخم، وأنه قلما متّع ناظره بروعة الفضاء وسحره، جلس فوق الكرسي الجلدي الموجود خلف مكتبه الضخم، وضغط على زر الجرس كالمعتاد، فدخلت الكاتبة، تحمل " البارافور " الخاص بالتوقيعات، حملق بها وكأنها تقف أمامه أول مرّة ، قامة هيفاء وجسم يحتضنه فستان يبرز كل مفاتن "الأنثى الجميلة" ،فتح وعيناه تسترقان النظر إلى سيقانها وصدرها العامر.. كم هي جميلة التفاصيل إن تعلّق الأمر بغادة حسناء مثل هذه الكاتبة ..وَقَعَ الأوراق بارتباكٍ ثم أعادها إليها ، فاحتضنتها وهي ترسم على محياها ابتسامة مغرية، بعد أن احست بنهم نظراته، تابع عجيزتها المكتنزة بعينين جاحظتين وهي تغادر المكان، تاب إلى نفسه وأحس بان مرحلة

خلف السراج ===== محمد محضار

التفاصيل قد اقتحمت حياته دون إستئذانٍ، ولن يتخلّى عنها مهما كانت الأسباب والمسببات.

محمد محضار: خريكة في 22 نونبر 2012

11 - عير الماضي

عندما استيقظت هذا الصباح، اكتشفت أن تغييرات مثيرة قد طرأت على جسدي، فأنا لم أعد ذلك الكهل التخين الذي يجد صعوبة في الحركة ، ويواجه مشاكل جمة في التنفس، فقد وجدتني استعيد الكثير من نشاط الشباب، ورشاقة الأيام الخوالي، اندفعت نحو المرأة المنتصبة في بهو الشقة، وإذا بي أمام منظر غير قابل للتصديق، جسم رشيق ومتناسق، وشعر أسود فاحم ينسدل على جبیني الوضيء، ومحيا مشرق يفيض حيوية. ابتسمت، ثم تراجعت إلى الخلف، واستلقيت على إحدى الأرائك التي تتوسط الصالون، بحث في جيب جاكيتي عن علبة سجائري الخاصة ..كانت مفاجأتي كبيرة حين وجدت غليوننا وحقّ تبغ مكانها، حشوت الغليون بالتبغ، ثم أشعلت النار بولاعة ذهبية كانت موضوعة فوق طاولة الأبنوس الموجودة أمامي، نفثُ دخان الغليون بنشوة. قلت لنفسي: لعل شيئا مثيرا يحدث في هذا العالم الحزين؟..وتساءلت: " ما سر العودة إلى مرحلة ظننتها انتهت إلى غير رجعة؟ وهل ما يحدث لي الآن معزول، أم أنه يمس كل الناس؟ "

إتجهت صوب النافذة، فتحتها، وقفت مشدوها لما رأيتُ. المكان غير المكان، والزمن خارج نطاق الاستيعاب.

أنا الآن أطل على فضاء غريب عليّ، شارع شبه خال، وسيارات قديمة تذكرني بطفولتي، نُبتُ إلى نفسي وبحثُ عن هاتفي الخلوي فلم أجده، كذلك اختفت كل الأجهزة الإلكترونية من قبيل جهاز التلفاز المسطح، وجهاز الفيديو، وحل محلها جهاز راديو قديم بإطار خشبيّ، وفجأة وقعت عيني على يومية "بوعيداد" مثبتة على الجدار ، اقتربت منها ببطء وحدقت في التاريخ الذي تحمله ورقة اليوم: 10 يوليوز 1971، هرولت إلى غرفة النوم أبحث عن زوجتي و إبني فلم أجدهما، غرفة النوم نفسها كانت معالمها متغيرة، وليس فيها أي شيء من الأثاث الذي إقتنيته صحبة زوجتي منذ شهور ، في الغرفة المجاورة كانت تنتظرني مفاجأة غير متوقعة، فقد وجدت والدي ووالدتي يمسكان بمذيع صغير وهما ينصتان إلى إذاعة "لندن" قال والدي :

" لقد فعلها العسكر ..قتلوا العشرات من الأبرياء في قصر الصخيرات الملك مصيره غير معروف وقاطعته أمي مولولة: " اللعنة على المذبوح وعبابو، وكل من تسبب في هذه المجزرة، لقد نسوا أن الملك خليفة الله في أرضه ".

تركتهما وعدتُ مبهورا إلى بهو الشقة، اتجهت من جديد صوب النافذة، اكتشفت أن هناك سيارة

عسكرية مزرعة تقف وسط الطريق ..وفي تلك اللحظة سمعت صوت طائرة مروحية تحلق في الفضاء، وأزيز رصاص يحطم سكون المكان، شعرت برعب وخوف كبيرين، وسألت نفسي بإلحاح قوي : " ماذا أفعل أنا هنا؟؟ وما سر هذه الأحداث التي أعيشها كحاضر قائم، بعد أن طواها الماضي، وأبي المّيت منذ عشرين عاما كيف يستيقظ من رقدته الأبدية ويصبح من الأحياء؟ وأمي التي تعيش بالديار الإيطالية عند أختي ..كيف تقطع كل هذه المسافات البعيدة لتحضر إلى هذه الشقة الغريبة؟.

استعدت بعضا من هدوئي ثم اقتربت من جهاز الراديو القديم، وأدّرت زر التشغيل ، انساب صوت عبد الوهاب الدكالي وهو يؤدي أغنيته الشهيرة "حبيب الجماهير"

وفجأة تم توقيف الأغنية وتدخل المذيع بصوت جهوري: " أيها المواطنون أيتها المواطنات، جميع الأخبار التي تردكم عن الملك لا أساس لها من الصحة ..جلالة الملك بخير "

ودون وعي مني اندفعت نحو الغرفة التي كان بها والديّ وهتفت بهما:

- الملك بخير ..إذاعة طنجة أعلنت الخبر
أسرع والدي يدير زر البحث عن الأمواج
الإذاعية، كرر المذيع الخبر، وتدخل عامل الإقليم ليقرأ
بياناً يؤكد نجاة الملك، وفشل الانقلاب، أطلقت أمي
زغروزة مدوية، وقال أبي بصوت متأثر، وعيناه
تترقرقان بدموع الفرح:
- الحمد لله على موت الفتنة في مهدها، اللهم احفظ بلدنا
من مكر المخربين.
لملمت نفسي وقررت أن أترك هذه الشقة، علني
أخرج من شرقة الماضي السحيق الذي وجدتي
مشدوداً إليه دون رغبة مني.
عندما أصبحت بالخارج تنفست الصعداء والتفت
في كل الاتجاهات أستطلع ما يدور حولي .. لكن ما أشبه
الداخل بالخارج فالزمن ثابت لا يتغير، والمنظر العام
محاصر بعبق السبعينيات، سألت أحد المارة عن الحي
الذي أتواجد به، فأخبرني وهو يسرع مبتعداً "هذا حي
المحيط " إذن أنا في الرباط.
انطلقتُ استحث الخطى على غير هدى، أبحث
عن نفسي وذاتي في زمن لم أختره ، ومكان لم أعش
قط بين ظهرانه. بعد طول سير وجدتي في حسان،

قطعت شارع الجزائر، حتى ساحة بيتري، اشتريت باقة ورد من "مارشي النوار"، وفجأة لا حت لي دبابات وسيارات مصفحة، تذكرت أن صراعا داميا قد دار بين الإنقلابيين والقوات النظامية للجيش في محيط الإذاعة والتلفزة، انتهى بسحق التمرد ومقتل عباو. انقضى من الوقت روح وأنا أقف على ناصية الشارع غارقا في شرودي ، وعلى حين غرة دوى انفجار قوي بالقرب مني ، تلته لعلعة رصاص من كل الجهات، فهرولت هاربا ، لا ألوي على شيء، وكان أشخاص آخرون مرعوبون مثلي يركضون طالبا للنجاة، وفي لحظة مثقلة بالخوف خارت قواي، ولم أعد قادرا على التحمل، فتهالوت على الأرض، وفقدت الوعي تماما، لكن صوتا دافئا قادما من بعيد رنَّ في أذني ، ولمسة حنان من يد لدنة ، أعادت لي صلاتي بالعالم ..كان الصوت لزوجتي وهي تقول :

- ماذا دهالك يا حمادي؟؟ يبدو أنك تهذي بكلام غير مفهوم

فتحت عيني بصعوبة، نظرت حولي ، كانت زوجتي تجلس تحت واقية الشمس، وكنت أنا ممددا فوق الرمل الساخن بلباس البحر، هتفت بزوجتي متسائلا:

- أين أنا؟؟

ردت زوجتي بصوت ساخر :

- أنت في شاطئ الصخيرات ويبدو أن ضربة شمس قد نالت منك.

تخطيت ذهولي، وقمت من رقتي، أزحت حبات الرمل العالقة بجسمي ، ثم إتجهت صوب البحر، وألقيت بجسدي في مياهه الدافئة، انتابتنى رعشة لذينة إمتزجَ فيها عبق الماضي بعبير الحاضر، وسرعان ما سرى تيارها في كل حواسي وراح يتتلمى حتى وصلت درجة مطلقة من الشعور بالذات.

محمد محضار أبريل 2011

12 - العامريات

قالت أُمي بصوت جهوري :

- إسمع يا ولدي هذه المدينة لها نساؤها الشريفات
العفيفات، العامريات حمروات الرؤوس شاربات
الحناء، من دخلها عليه أن يطلب التَّسليم، وسينال المراد
ويحقق مبتغاه، إذا كان نقيَّ السريرة صافيَّ القلب .

قلت لها مبتسما:

- أطلبي لهن الرحمة، مثل جميع أموات المسلمين
قاطعتني:

أروجهن الطاهرة تطلق فوق سماء المدينة ، هن
يخرجن في الليل متلفعات بأردية بيضاء، يقال أنهن
سبع وربما كن عشرا، لكن العلم لله وحده، جدتك رأتهن
ذات ليلة قرب سوق الخميس بطريق الخطوات ،ومنذ
ذلك الحين صارت البركة ترافقها أينما حلت وارتحلت،
أنت تعلم أنها عاشت مائة عام ونيف ،وكانت تقول، "
العامريات ديما معايا"، كان الناس يأتون إليها من كل
مكان لأخذ البركة ولم تكن تبخل عليهم، خلال طفولتك
كنا نذهب جماعات إلى مثواهن الطاهر، نزور أيضا
ضريح سيدي عبدالخالق، نضع الشمع ونترحم على
أهل تلك الدار، ونقضي يومنا في رحاب الطبيعة نأكل
ونشرب، اليوم كل شيء تغير، أصبح الناس مشغولين،
والحياة صارت معقدة، القليلُ كان يدخل البهجة لقلوبنا،

أتعلم أنك كنت تسعد وترقص من الفرح عندما أشتري لك قلة صغيرة ونحن هناك، كنت تسميها "قلوش العامريات"، فتملؤها ماء وتمضي تلعب مع أترابك، أتعلم أن البركة الوحيدة الباقية في هذه المدينة هي بركتهن، والدك كان دائما يقول: في الشرق الأنبياء وفي المغرب الأولياء، وخريكة أولياؤها هن العامريات. تذكر هذا، ربما يبدو لك كلامي مجرد تخاريف تهذي بها عجوز تعيش خريف العمر، تذكر أن الحياة نية أولاً والنَّية أبلغ من العمل .

قاطعتها ضاحكا:

- حراس هذه المدينة إذن نساء ، وأكثر من هذا تحت التراب.

تابعت بصوت تشوبه رنة تأكيد:

- بلى هذا ما فيه شك ،النساء أحيانا يَكُنَّ أشرف من العديد من الرجال، ولو كانوا بشوارب طويلة.

أحسست، بأن في كلامها كثير من الصحة، فأكثر الجرائم يرتكبها رجال، وأغلب الحروب، يعلنها رجال، النساء كن دوما ضحايا، أو سبايا، وفي أحسن الأحوال صوتا غير مسموع، ولكنهن قد يستطعن حراسة مدينة بالبركة، وهنَّ تحت التراب .

محمد محضار يونيو 2016.

13 - عشاء الليلة

البنيت تنظر حولها بفرح طفولي، خيوط المخاط تنساح من أنفها، ملامسة شاربها، تمسحها بين الحين والحين بظهر كفها، تمسك بتلابيب أمها، الأم متأففة تسير، تلعن البشر والحيوان، وتشتم الجدران والشوارع، وكل ما ترى أمامها، سرا وعلانية، عيناها تشيان بحقد دفين، وقلبها يفيض بغل لا حدود له، تمرق فجأة بمحاذاتها سيارة رباعية الدفع، تقودها سيدة شقراء، تكاد تدهسها، لولا انفلاتها بسرعة، وهي تجر ابنتها، ترفع صوتها صارخة: " الله يلعن جد بوك الخازنة شوية وتقتليني أنا وبنتي ".

السيارة تبتعد، والغضب ينفجر داخل صدرها، تزيد من اللعنات، والسباب، تصادف عند إشارة المرور- حيث اعتادت أن تتسول من أصحاب السيارات، المتوقفة كلما اشتعل الضوء الأحمر، ما تعيل به أسرتها، وتدفع ثمن كراء غرفتها بسيدي الخدير، عائلات سورية يرفع أطفالها يافطات مكتوبة، أطفال " قافزون " علمتهم الحياة والحرب أن لقمة العيش تؤخذ من فم الأسد، ابنتها " مرخية " ومتواكلة لم تعلمها الحياة شيئا.

تهتف بابتها: " تحركي، إفعلي شيئا، السوريون والأفارقة أصبحوا يزاحموننا، وعلينا أن نأخذ حقنا بالدم والنار، لعن الله الحرب والجوع، وداعش "

الإبنة، تطيع أمها، تهرول نحو السيّارات، تمد يدها النحيفة، تردد اللازمة التي علمتها إياها والدتها:

" صدقة على الله، الله يرحم ليك اميمتك، ". تفتح سيدة زجاج سيارتها، تنفحها درهما، تندفع إفريقية كانت قربها نحو صاحبة السيارة وهي توجه نظرة شزراء للطفلة، تطلب أيضا حقها، الذي افتقدته في بلدها، تغلق السيدة زجاج سيارتها، تسرع الأم نحو ابنتها، تلوح بيدها مهددة الافريقية التي تنسحب بسرعة، تردد بصوت غاضب: " ولّيتوا باغين تقسموا معنا اللقمة والجفمة، وفين بغيتونا نمشيوا .. للجايحة الكحلة، لتدّينا ونديكم " .

تتبادل البنت الابتسامات مع الأطفال السوريين، تشاركهم اللعب والتسول، تحس الأم أن البراءة لا وطن لها، هي هبة ربانية، يقذفها الله في قلوب الأطفال، أينما كانوا ووجدوا، الوقت يمر، ملحمة الاستجداء تتواصل، بكل الوسائل، بكل اللغات، ترافقها الإشارات، والحركات، الأم والإبنة تشاركان بحماس ونشاط لا يفتر في الملحمة، تتداخل الخيوط وتتشعب الفصول.

سيارات تتوقف، ثم تتحرك لتعوضها أخرى، نفس الكلام يتكرر، مع بعض الرتوشات.

تنتبه الأم إلى الوقت المنسل، السماء تلبس ثوباً أحمرأ بدأ يميل إلى السواد، تمسك يد ابنتها، ثم تنسحبان بهدوء، يبدو أن " عشاء الليلة طلع، الله يجعل البركة ".

محمد محضار يوليو 2016.

14 - ثمن الكرامة

الشمس قرص أحمر يحتضنه الأفق، وأشعتها المحتضرة
تسربل خطاك الوانية، وأنت تسير على الكورنيش،
البحر ثائر، أمواجه العاتية تزار بوحشية، قدماك تنوءان
بحملك تودان لو تخلتا عنك.

إستند إلى حائط الكورنيش، القصير بمرفقيه، ألقى
ببصره جهة البحر، الخمول ينشر قلاعه ملء جسده
الواهن، الصبر ما الصبر؟ إنه لعنة تحل بالمرء تحطمه
تقوده إلى الهاوية.

تتحسس قسماات وجهك الشاحب بأنامل يدك النحيفة.
الشعور بالهزيمة المرة يزحف في وجدانك، وقلبك
المعذب يخفق باضطراب.

عاود المسير كانت تدور برأسه أفكار من نوع غريب،
هلوسة وشبه هذيان ..أنت منبوذ وضعيف أمثالك من ذا
الذي يحس بهم، من ذا الذي ينتبه إليهم.

الطريق يمتد ويطول تحت قدميك..والعمارة التي
تحتوي شقتك الصغيرة تلوح..السخام يُلوث أعلاها،
والرطوبة تمد أخاديد متعددة على جدرانها.

صعد السلم في تخاذل فتح باب شقته ، دلف
داخلا، ضغط على زر الكهرباء فتبدد الظلام المدلهم
الذي كان يملأ المكان، تعثر في خطاه قبل أن يرمي

بجسده الواهن على الأريكة الجلدية الوحيدة الموجودة بشقته، مدد قدميه إلى الأمام واستند إلى متكأي الأريكة.

كم يصعب التأقلم مع ظروف هذه الحياة التي تبدو عسيرة ومعقدة ، تُشعل سيجارة، تنفث مع دخانها كل كوابت كيائك الجريح، تكبر كأبتك، وتتداح في كل مكان حولك، يفلت من يدك عقالها لا تدري لماذا يحدث هذا ؟ المهم انه يحدث وكفى , أنت تتعذب والإنفصام اللعين يفرض نفسه ضيفا ثقيلا علي شخصيتك , فتصبح شخصين في شخص واحد، تتملق في النهار وتثور في الليل, تبش وتظهر الاحترام المتكلف لرؤسائك أثناء العمل ، وتلعنهم عندما تعود الى شقتك , لك وجهان إذن ومن يدري قد يصبحان ثلاثة اوحتى أربعة حسب الظروف والأحوال..

طرقات خفيفة على الباب تهادت الى أسماعه، مرت هنيهة قبل أن ينهض .فتح الباب..دوت ضحكة نسائية رخيمة ، نظر إلى الواقعة أمامه.نعيمة بكل سحرها وشقاوتها.

شم رائحة الخمر في فمها عندما طبعت على خده قبلة :

" تفضلي .. ادخلي، عاش من شافك، أطلت الغيبة هذه المرة .. أنسيت أنك وعدتني بالزيارة عند مطلع كل شهر وها أنت تغيبين ثلاثة شهور "

ابتسمت، رنت اليه بعينيها النجلاوين، ثم اندفعت داخلة تبعها من الخلف بعد ان أغلق الباب، خلعت ثيابها دون ان تنبس بكلمة، ثم دخلت الفراش ونظرت نحوه تدعوه الى الاقتداء بها، لم يتوان عن تلبية ندائها الصامت، وبعد حين أصبح بالقرب منها يسري في جسده دفء من الشهوة الحمراء، التحم لحظة، ثم تركا بعضهما بعد الوصال، استندت برأسها الى صدره الكثيف الشعر وغرزت اناملها الرقيقة بين خصلات شعره الطويل تداعبها بحنان ..

تشعر بفرح طاغ يزخر به قلبك، الحياة تحولت فجأة الى ابتسامة على شفتي نعيمة، والوجود صار لمسة حنان توقعها أناملها الرقيقة على جسدك الواهن، وجهها الساجي حطم صخرة الروتين التي ظلمت تنوء بها طيلة هذه الشهور التي باعدت خلالها الأيام بينكما، حقا هي مومس لكنها مثقفة ومتعلمة، ولعل هذا ما يجعلك تحترمها الى حد كبير.

سألها ضاحكا:

- لم تقولي أين كنت خلال هذه المدة؟
- هل تصر على معرفة الحقيقة؟
- إذا كان ممكنا
- الحقيقة أنني كنت خارج أرض الوطن
- خارج أرض الوطن!
- نعم .. فقبل شهر تعرفت على ثري خليجي بأحد الملاهي الليلية... دعاني للسفر الى إشبيلية، فوافقت وهناك عشت أياما باذخة.. تصور أن صاحبنا كان يشعل ي أحيانا سجائري بورقة بنكية.
- شئ مثير حقا !
- عندما عدنا الى الوطن منذ اسبوعين، أصر على ان نعقد قراننا فوافقت تحت طائل إلحاحه.
- إذن أنت الآن سيدة متزوجة
- ضحكت وقالت :
- تقريبا.
- ماذا تعنين بهذه التقريبا؟
- الحقيقة أن زوجي إتفق معي على ان يأتي للمكوث معي شهرا واحدا كل سنة، وقد اشترى لي بيتا وفتح لي حسابا بنكيا جاريا، وابتاع لي سيارة فاخرة
- إذن أصبحت غنية
- كل هذه الأموال لا تساوي شيئا امام ضمة واحدة منك
- حقا!

- ألا تزال ترفض أن تصدق أنني أعبدك ...إنك قدرتي الذي لا أستطيع الفرار منه..

ران الصمت عليهما لحظة، لكنها سرعان ماكسرتة وشفقتها تونقان بابتسامة عريضة.

يمكنك أن تختار شقة مناسبة لمقامك وسأدفع إيجارهاستكون عشنا الذي نأوي اليه .

حدجها بنظرة ثائرة وقال :

- لا أستطيع ان ألبى طلبك

زوّت ما بين حاجبيها وتمتت بنبرة حزينة:

- هكذا! تكسر خاطري

- لم أقصد ولكن

قاطعته مبتسمة:

لا تقل شيئا ..لقد أويتني من قبل وخيرك سابق..أريد أن تتمتع معي بأموال الخليجي.

لكنها متعة ثمنها كرامتنا معا

أرجوك لا تتحدث عن الكرامة وشطّب عليها من قاموسك اللغوي ..فهي لم تعد الا لفظا أجوفا لا خير يُرتجى منه.

خلف السراج ===== محمد محضار

لم يقل شيئاً اكتفى بضمها الى صدره وطبع على
شفتيها قبلة حارة .

محمد محضار 1987

15 - درسنا اليوم

قال تلميذ لزميله:

- وزرة المعلم مقطعة من الخلف
- علق الزميل ضاحكا:
- أنظر الى لونها إنه باهت
- وتدخل تلميذ آخر وقال:
- إنها بلا أزرار
- صرخ المعلم غاضبا :
- إنتههوا نحن هنا لنتعلم، لا لنثرثر
- عم صمت لحظي صفوف القسم، قال المعلم :
- درسنا اليوم سيكون حول الحشرات الطفيلية
- تهامس التلاميذ: " الحشرات الطفيلية "
- تابع المعلم :
- من منكم يذكر لي بعض أنواع الحشرات ؟
- لم يتكلم احد، واصل كلامه بصوت مشجع :
- هيا هيا..الجواب سهل
- قال تلميذ من الخلف :

- القمل يا أستاذ
- حسن جدا يا ولدي، نعم القمل حشرة طفيلية تعيش على دم الإنسان وتمتصه
- وقال آخر :

- الناموس
- وثالث :

- البق
- ورابع:

- الذباب
- تدخل المعلم من جديد:

- نعم يا أولاد كل هذه الحشرات التي ذكرتم طفيلية .. تعيش عالية على الآخرين تمتص دمائهم وتقتات بها ، فهل تعرفون كيف يمكن التخلص منها؟
- أجاب تلميذ :

- ننظف أجسامنا ومنازلنا
- أثنى المعلم عليه وهو يبتسم:

- نعم معك حق علينا أن نحارب هذه الحشرات بالنظافة

وأجاب آخر :

- نستعمل المبيد لقتلها

رد المعلم مشجعا:

قول معقول ..المبيد ضروري لإبادة الحشرات

وتدخل تلميذ معلقاً :

- هناك يا أستاذ بعض الحشرات التي تقاوم المبيد

ردّ المعلم قائلاً:

- هذا صحيح ..الحشرات تكتسب مناعة ضد المبيدات ولا

بد من تجديد تركيبتها من حين لآخر حتى يتقوى
مفعولها

وقال تلميذ يجلس في الخلف:

- أسمح يا أستاذ

رد عليه الأستاذ مبتسماً:

- وأخير نطقْتَ يا فرحان، لم نسمع صوتك منذ مدة

قال فرحان بصوت خافت:

- هناك يا أستاذ نوع من الحشرات لم تتعرَّض له بالذكر

قاطعهُ الأستاذ باندعاش :

- لم نتعرض له!! نوع من الحشرات؟
- بلى يا أستاذ، والدي يقول بأن هناك بشراً أفس من الحشرات يعيشون على مص دماء الآخرين .
- نظر المعلم الى تلميذه باعجاب وقال:
- ما تقوله تشبيه حقيقي لوضع قائم
- تابع فرحان كلامه :
- أبي يقول ان المرتشين والمرابين وأولئك الناس الذين يسمون "كروش الحرام" أخطر من القمل والبق والناموس فهم يمسون الدم ويسفون العظم .
- إبتسم المعلم:
- ماقاله أبوك هو عين الصّواب، نسأل الله أن يجنبنا شرّهم ..والآن لنعد إلى درسنا، فقد يزورنا المفتش، ويكتشف أن كلامنا خارج المقرّ..

محمد محضار 1995

16 - الحقيقة الضائعة

أعشق الحلم، وأهيم في ملكوته، اللامحدود.. لا يهّم إن كانت أحلامي طوباوية، أو لامسة لأرض الواقع، هي أحلام إنسان بسيط يتمنى أن تكون له أسرة صغيرة، وأن يجد فتاة ذات أخلاق عالية وسلوك مقبول يبني معها صرح بيت سعيد. مقابل كل هذا كان علي أن أعيش الواقع بكل حذافيره وأتكيف مع وضعي المادي والمعنوي وأسطر صفحات حياتي بشكل معقول يجعلني إنساناً حقيقياً متصالحاً مع نفسه ومع واقع مؤمناً بصدق قضيته ومدركاً لحقيقة وجوده .

في كل مرة أجدني غير قادر على استيعاب الكم المتجدد من المفاهيم السائدة والمنتشرة بين أفراد المجتمع، فألجأ إلى عزلة إختيارية، وخلوة احترازية مع الذات لاستكناه حقيقة الأمر وفهم الواقع بحذافيره .

عندما التقيت خديجة في معرض الكتاب، أحسست بتناغم جميل بين فتنة الحلم وجاذبية الواقع واكتشفت أن الحب يمكن أن يطرق باب القلب في أي لحظة دون إستئذان فيغير الكثير من مجريات الأحداث. خديجة كانت مجرد فتاة عادية ذات جمال متوسط، لكن لغتها كانت رقيقة وحانية فيها الكثير من ملامح الدفء ووهج الشوق، شخصيتها كانت جذابة ومؤثرة بشكل كبير في محيطها.

كان حديثنا في بداية الأمر عابرا وعاديا، لكنه سرعان ما تطور بشكل سريع ليصبح حديثا ذا شجون، وتحرك القلب بين الجوانح وسارت خديجة ذات أهمية قصوى في حياتي. لم تكن هي تدرك هذه الحقيقة، أوتعيها، بل كانت تظن أن ما يجمعنا هو تلك العدوى الثقافية التي تجمع عادة بين المثقفين وعاشقي الإبداع دون أن يخطر ببالها أن الحب هو وقود الإبداع وأهم حافظ له.

- حاولت أن أُلَمِّحَ لخديجة وأكشف عن دواخل الذات ولواعج الفؤاد، لكنها كانت لا تأخذ كلامي على مَحْمَل الجد ، وتعتبره لغوا وسقط كلام ليس إلا، تجرأت في لحظة صفو وقلت لها بصوت عال :
- أحبك
- فردت بابتسامة غامضة ولم تقل شيئا قلت:
- الصمت علامة الرضى
- حملقت بي لحظة ثم زوّت ما بين حاجبيها وقالت:
- كم هي جميلة هذه الكلمة لها في الأذن رنين وفي القلب طنين ، لكن هل تحبني كشيء أو كفكرة، أو كخاطر؟؟
- نظرت إليها باستغراب وقلت:
- كلامك غامض وسؤالك محير
- ابتسمت وهي تضم يديها إلى بعضهما ورددت بصوت منفعل :

كلامي واضح، وسؤالي أكثر وضوحا، فالحب لم يكن يوما مجرد كلمة نردها دون أن ندرك معناها ونحدد أبعادها.

- قاطعتها:
- أعترف بأنني لم أفهم شيئا
- تابعت:
- الحب ليس لحظة متعة ذهنية أو جسدية سرعان ما تخبو إذا ما اعترضها أول مطب.
- همست لها بصوت حاولت أن أجعله حميميا:
- أنا مجرد إنسان عادي يبحث عن شريكة لحياته وأظنك هذه الشريكة.

- ظلت صامئة تحملق بي ، وتابعتُ كلامي :
- أعرف أن لك فلسفة عميقة في الحياة، وأن نظرتك للأمور تتجاوز الرتابة القاتلة التي تفرض نفسها ضيفا ثقيلا على عالمنا.
- قاطعتني ضاحكة:
- ألا تسأل نفسك عن حقيقة وجودي؟
- أمسكت يديها وضغطت عليهما بحنو وقلت:
- أنت موجودة، من يستطيع أن يقول العكس؟
- واصلت كلامها برنة ساخرة:
- موجودة! فسر ذلك؟؟ ربما كنت مجرد فكرة تراود خيالك، أو خاطر يسكن وجدانك؟؟

- إعترضت على كلامها قائلاً:
- أنت موجودة وراسخة في الوجود، "لأنك الحقيقة"
 - ردت بصوت مشوب بالشجن:
 - أنا الحقيقة الضائعة وستظل تطاردني دون جدوى.
 - ضمنتها إلى صدري بقوة و أغمضت عينيّ ثم قلت:
 - أحبك لأنك أنت هي أنا، وأنا هو أنت.
- عندما فتحت عينيّ كنت وحيداً، أضمت إلى صدري رواية "الحقيقة الضائعة" التي اقتنيتها من معرض الكتاب .

محمد محضار فبراير 2014

17 - في انتظار الزائر الكريم

عندما نزلت من سيارة الأجرة شعرت براحة كبيرة، فقد ظلت، طيلة الرحلة الممتدة من مدينة وادي زم حتى دوار "العشاشكة"، أرزح تحت ثقل شيخ ستييني تكوم فوق رجليّ، وهو يدخن بنهم سجائر "كازا" الرخيصة، غيرَ أبه باحتجاجاتي.

كان سائق السيارة يكتفي بلازمة تعودتُ على سماعها من جميع السائقين: "اسمُحْ لينا ألفتيه، نحن مضطرون إلى حمل هذا العدد من الركاب لأننا خلال رحلة العودة لانجد "مسافرين" قد يكون في كلامه بعض الصّحة، لكن محترفي مهنة الطباشير من أمثالي هم من يدفعون الثمن، لأنّ رحلة العذاب يومية.

حرّكت رجليّ حتى يسري فيهما الدم من جديد ويذهب ذلك التتمل القوي الذي كنت أحسه. مسحت بعيني الفضاء.

كانت بناية المدرسة تلوح من بعيد بلونها الكالح وسورها الحجري المطلي بالطين، وتبدو مثل أثر تاريخي ضارب في القَدَم.

نظرت إلى ساعتَي اليدوية. مازال أمامي ربع ساعة قبل بداية أولى حصص الدراسة. سرتُ بهدوء نحو بناية المدرسة.

كان الطقس باردا، رغم أشعة الشمس المتسلسلة
عبر السحاب المتمدد في السماء.

عندما اجتزت بوابة المدرسة، اقترب مني "بَا ميلود"
وقال بصوت أجش:

سي عبد السلام يقول لك.. هناك اجتماع مستعجل الآن
في الإدارة سألته، بصوت مستنكر :

- والتلاميذ.. ماذا نفعل بهم؟! رد ضاحكا:

- كالعادة، كلف أحد التلاميذ بحراستهم وسأراقب أنا
جميع الأقسام حتى ينتهي الاجتماع.

هرولتُ نحو قاعة الدرس طلبت من التلاميذ
إخراج كتب القراءة ونقل أحد النصوص في دفتر
الوسخ، ثم أسرعت نحو مكتب المدير. كان باقي
الزملاء قد سبقوني إلى احتلال أماكنهم. ألقيت التحية
على الجميع ثم جلست.

كان سي عبد السلام، مدير المدرسة، يجلس
خلف مكتبه الصغير وهو يمسك سيجارته كالمعتاد، فقد
كان مدخنا نهما.

قال، بلكنته الشمالية :

- مرحبا بك، سّي بشار ردّدت، وأنا أبتسم:
اجتماع عاجل في بداية الحصص.. لا بد أن الأمر
خطير، سيدي المدير ضحك الجميع وتساءلت زميلاتنا
طامو: هل يتعلق الأمر بذاكرة وزارية مستعجلة أم
بحادث طارئ ضحك المدير، وجال بعينيه الضيقتين
بيننا وهو ينفث دخان سيجارته، ثم قال :

- لا هذا ولا ذاك.. تعلمون أنكم خلال هذه السنة في
فترة تدريب، وطبعا تحتاجون إلى نقطة المفتش ونقطة
عبد ربه حتى يجري ترسيمكم .

- قاطعه صديقي جمال :

ماذا يعني كل هذا، ؟ كن واضحا، من فضلك
مطط المدير شفثيه وقال، بصوت متصنع :
ومتى كنت غامضا؟!... على كل حال، سيأتي المفتش
لزيارة المؤسسة غدا، وعلينا أن نكون مُستعدين
لاستقباله.. بكل بساطة، علينا أن نساهم جميعا بمبلغ
مالي لإعداد وجبة غداء محترمة، وتغطية مصاريف
تنقله إلى المدرسة المركزية.. أظنّ أن مبلغ
عشرون درهما مناسب وغير مكلف.. ما رأيكم؟

نظرتُ إليه بأسـ تغراب وقلبت:
السيد المفتش يحصل على تعويضات لأداء هذه
المهمة.. ما سنقوم به يعدّ رشوة!
قاطعني المدير، بصوت مسـ تنكر:
هذا نُسمّيه كرم الضيافة يا سيد بشار.. المغاربة جُبلوا
على الكرم علقت طامو، وهي تبتسم:

عائنا إكرام السيد المفتش حتى يُكرّمنا بنقطة الامتياز
وقال سليمان:

- المسألة في غاية البساطة، هناك معادلة رياضية يكمن حلها في ذلك المبلغ الذي سنجمعه تدخّل المدير من جديّد، وهو يحمل ق فـي: ها أنت ترى، يا سيد بشار، أن زملاءك متفقون مع فكرة الإدارة صمت لحظة، ثم تابع، بصوت تعمّد أن يطبعه الوقار:

أقترح مبلغ عشرين درهما.. نحن ستة أشخاص، المبلغ المحصل سيكون مائة وعشرين درهما.. قاطعته مبتسما، وأنا أضع مبلغ المساهمة: تفضّل، أنا لا تهمني قيمة المبلغ، بل الفكرة ضحك المدير وقال:

- المبلغ أولا، ثم تفلسف كما تريد يا سيد بشار وضع الزملاء مساهماتهم على مكتب المدير. خرجت عيناه من محجريهما وهما تحتضنان المبلغ قبل أن يمد يديه ليُعده، بفرح طفل، ثم يتابع الكلام: شكرا لكم أبنائي، سنكون جميعا في مستوى الحدث واستطرد، بعد صمت قصير، وهو يحرق بي: اسمع يا سيد بشار، ستتكلف بشراء لوازم إعداد وجبة الغداء

نظرت إليه مستغربا:

- أنا! هل تمزح يا سيدي؟

- أنا لا أمزح، سنُعدّ لائحة بمتطلبات الوجبة، وستتكفل أنت بالذهاب إلى مدينة وادي زم لشرائها، وهذا قرار إداري.
- ثم قهقه ضاحكا، وتابع:
- طامو وحادة ستتكفلان بإعداد الوجبة، بمساعدة زوجة الحارس وابنته ثم أردف، بعد لحظة صمت قصيرة: سيد بشار ستكتفي بالعمل خلال الصباح، ثم تغادر لشراء اللوازم، على أن تبكر في الحضور يوم غد... أحسستُ بأنني أدخل دائرة التدجين رغم أنني.
- بدا لي أن المشاركة في اللعبة أمر لا مناص منه، لتحقيق الغايات دون اهتمام بالوسائل، فقبلت المهمة دون قيد أو شرط وهرولت إلى قسمي. كان التلاميذ يمارسون شغهم غير أبهين بميلود، حارس المدرسة التاريخي، الذي كان ينتقل بين الأقسام وهو يصرخ: "وا سكتوا ألعفاريث".. توقف التلاميذ عن إثارة الشغب عندما رأوني أدخل القسم. اتجهت نحو السبورة وكتبت تاريخ اليوم، ثم قلت بصوت جهوري: انتبهوا إلى السبورة، سنتعرف اليوم على حرف جديد.. حرف الميم .
- ثم بدأت بكتابة جمل تتضمن الظاهرة اللغوية المراد تدريسها وتموقعات الحرف، سواء في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها. استعملت الطباشير الملون لتوضيح ذلك. قرأت الجمل بالترتيب، ثم انطلقت أشرح الدرس، كالعادة. وعندما أحسست بأنني أثرت انتباه الصغار،

أُتحت لهم فرصة التّحاور والمشاركة وطالبت منهم جُملاً تتضمّن الظاهرة اللغوية. وكانت فرحتي كبيرة وأنا أرى الصغار مُتحمّسين، سعداء وهم يرفعون أيديهم ليشاركوا بجمل تتضمّن الحرف المقترح.

أشرتُ إلى عَمَر. قام إلى السبورة وكتب: " سيزور المفتش المدرسة ليفتش المعلم " نظرت إليه مبتسماً، ثم أشرت إلى فتحة، فأسرعتُ نحو السبورة وكتبت: "استقبل المدير المفتش مبتسماً " حدّقت بها وأنا أضحك، ثم قلت: يبدو أن بّا ميلود" أخبركم بزيارة المفتش لنا يوم غد، رجل ثرثار لا يحفظ سرا "

محمد محضار يناير 2016

18 -المفتش يشرفنا

موجة برد حادة تغشى دوار السبت هذا الصباح، و المدرسة بلونها الكالح تبدو غارقة في الكآبة كالعادة، كانت قطرات ندى الصباح تبلل وجهي وأنا أستحث الخطى نحو بنايتها التي تعبق بأريج الماضي المحيل على فترة الاستعمار الفرنسي فقد كانت هذه البناية مقرا إداريا للمستعمر، عندما ولجت بوابة المدرسة أسرع نحو "با ميلود" مبتسما وهو يقول:

- دعني أحمل عنك هذه القفة الثقيلة ..سي عبد السلام ينتظرك

نظرت إليه بامتعاض وسلمته القفة، ثم اتجهت نحو مكتب المدير، استقبلني ضاحكا، وعيناه الثعلبيتان تشعان ببريق ماهر، طلب مني الجلوس بأدب مصطنع ثم قال :

- سي بشار شكرا لك على دعمك ، ستمر الأمور بخير والمفتش سيكون سعيدا خلال زيارته لنا.

لم أعلق ، اكتفيت بالنظر إليه، وأنا ابتسم، وتابع :

- حادة وطامو ستحضران معهما لوازم الطبخ، وستهيئان وجبة شهية تنال الرضى

بدا لي المدير أشبه بشخصية خرافية، في مسرحية عبثية، يؤدي دوره بحرفية كبيرة، دون أدنى هفوة، جاء

الزملاء، وقام المدير من مكانه محيياً وهتف بصوت جهوري:

- مرحبا بكم أتمنى أن نكون في مستوى الحدث، صديقنا بشار كان موفقا في شراء ما يلزم..

وتدخلت حادة بصوتها ذي الرنة الأمازيغية قائلة :

- سيمر كل شيء على أحسن ما يرام وسنربح الرهان وقال المدير معلقا:

- هذا ما فيه شك، يمكنك الآن أنت وطامو الذهاب لإعداد وجبة الغذاء ببيتي ، زوجة الحارس وابنته ستقومان بمساعدتكما ، أما أنا وميلود فسنقوم بحراسة تلاميذكما...

على هذا انفض الجمع، وقمنا نحن بادخال المتعلمين إلى قاعات الدرس ، وانصرفت حادة وطامو إلى مهمتهما وهما سعيدتان، كان التلاميذ بحسبهم الطفولي يستشعرون الحالة الغير العادية التي كانت تعيشها المدرسة، لهذا لم تتردد إحدى التلميذات في توجيه السؤال إلي وأنا ألج القسم:

- هل سيحضر المفتش اليوم يا أستاذ؟

رددت عليها وأنا أبتسم:

- نعم ولكن هذا أمر عادي وسنتابع حصصنا الدراسية كالمعتاد وقال تلميذ يجلس بالخلف:
- أستاذ هل المفتش رجل مثلك؟
- ضحك التلاميذ وقلت أنا:
- نعم إنه رجل وليس غولا
- في الساعة العاشرة والنصف توقفت بباب المدرسة سيارة من نوع فيا ط 124، ورأيت الحارس "با ميلود" يهرول نحو السيارة، يتبعه المدير، ترحل من السيارة رجل متوسط القامة يميل لون بشرته إلى السمرة يحمل محفظة جلدية سوداء اللون تبادل التحية مع المدير ثم اتجها نحو الإدارة ، مكثا لحظة
- وكان هذا الوقت كافيا لتمر حادة وطامو إلى قسميهما، وتتكفل زوجة الحارس وابنته، باتمام إعداد وجبة الغداء ثم غادرا الإدارة، رأيتهما يتجهان صوب قسمي، بعد حين وجدتهما، أمام باب القسم، تقدمت نحوهما مبتسما، قال المدير:
- سي الحسين مفتش المقاطعة لمادة اللغة العربية، السيد بشار مدرس القسم الأول مد المفتش يده مصافحا إياي، ثم دخل إلى حجرة الدرس، قام التلاميذ، رددوا بصوت واحد : " مرحبا بالزائر الكريم "

أشار إليهم بالجلوس، ثم اتجه نحو المكتب المهترئ، جرّ الكرسي وجلس، قدمت له المذكرة اليومية، وسجل الحضور والغياب، ثم أشرت إلى الإطار الخشبي المعلق بالجدار، وقلت:

- باقي الوثائق معلقة هناك أستاذ، التوزيع السنوي، التوزيع الشهري ، جدول الدراسة، تعاونية القسم ... قاطعني مبتسما:

- نعم سأطلع عليها، أين تحاضير اليوم، دفعت أمامه ملفا أخضر اللون.
وقلت :

- هاهي أستاذ، أما تحاضير الأسبوع فموجودة أيضا بالخزانة

فتح محفظته، وأخرج مجموعة أوراق، وضعها على المكتب، أخذ قلمًا، ثم فتح المذكرة اليومية، وقال وهو يشير إلى صفحة المعلومات:

- هل هذه المعلومات محينة.

- نعم أستاذ.

نقل المعلومات ، ثم نظر إلى جدول الحصص، وسألني :

- ماهي الحصة المقبلة؟
 - رددت وأنا أفتح ملف التحضير :
 - الحصة الموالية هي حصة القرآن الكريم،وبعدها حصة الفنون التشكيلية
 - رفع رأسه نحوي ثم أشار لي بيده وقال:
 - تفضل بإلقاء الدرس
- فتحت السبورة، على سورة الإخلاص، نظرت إلى المتعلمين، ثم بدأت بقراءة آيات السورة بصوت خاشع، أحسست ببعض الاضطراب، لكنني تابعت القراءة حتى آخر آية، اقتربت من أحد التلاميذ وأشارت له بالمسطرة التي كنت أحمل في يدي حتى ينتقل إلى السبورة ليقرا الآيات المقررة، لكنه قام بحركة مفاجئة ورفع يديه إلى أعلى كملاكم يريد أن يحمي وجهه، أسقطت في يدي، وأصابني شبه غثيان، لكنني تماسكت، وأشارت إلى تلميذ آخر حتى يقوم بالقراءة، لكن المفتش كان قد قام من مكانه وهرول نحو الإدارة تحت أنظاري، رميت المسطرة جانبا ولعنت الشيطان والتعليم والقسم والتلاميذ وقلت لنفسي بصوت مسموع " إنه زمن الإهانات فتحمل يا بشار واكتم في نفسك الجريحة،

ذهب الامتياز أدراج الريح ، لكن لا يهم ، الخير فيما اختاره الله".

عاد المفتش صحبة المدير، وقفأ أمام الباب، قال المدير موجها كلامه إليّ :

- لحظة من فضلك سيد بشار نريد أن نتحدث إليك غادرت القسم ملتحقا بهما قال المفتش بصوت غاضب:
 - التلاميذ مقموعون، يسيطر عليهم الخوف والرعب، الظاهر أنك تعاملهم بقسوة زائدة، وهذا ستكون له نتائج وخيمة على نفسيتهم، وكذلك نتائجهم الدراسية تدخل المدير وهو ينظر إليّ مبتسما:
 - أتعلم أن أحسن معلم عندنا في المدرسة سيدي المفتش هو السيد بشار قاطعه المفتش متهمكا وتقاطيع وجهه تشي بتجهم واضح:
 - يبدو أنك تسخر مني، سيدي المدير
- ورد المدير بصوت جازم، وهو يشير إليّ بيده حتى أبقى صامتا:

- حاشا سيدي المفتش أن أسخر منك ، فعلا السيد بشار يستحق هذه الصفة فلديه ثلاثة تلاميذ متخلفون ذهنيًا، وتلميذان مصابان بالتأتأة ويجدان صعوبة في النطق، أما التلميذ الذي رفع يديه مغطيا وجهه، فهو مصاب

بمرض التوحد، فهل هناك معلم يقبل بهذا الوضع ولا يستحق الشكر.

- كان كلام المدير يحمل الكثير من الصدق، فرغم اختلافي معه في بعض التوجهات والرؤى فقد أنصفني

نظر إلي المفتش وقد انفرجت أساريره ثم مد يده لي مصافحا وهو يقول:

- تستحق الامتياز إذن .

محمد محضار دجنبر 2016

19- حلم بوعلالة

عندما حصل بوعلالة على الباكلوريا ، كان الخبر قد شاع في واد النعناع، وهناك الكثير من الأهل والأصحاب، لم يتردد في ذلك اليوم لحظة، وركب سيارة طاكسي في اتجاه مدينة سطات، نزل قرب مقبرة سيدي عبد الكريم، وهول نحو مركز تكوين المعلمين ،وضع ملف ترشيحه، ثم انقلب راجعا إلى قريته الصغيرة، قابل والده جالسا في ركن محاذ لبقال الدوار ، يلعب "ضاما " مع أصدقائه، فهول نحوه، قبل يده وقال بصوت أجش:

- دعي معايا ألْبوعزاوي راني حطيت الملف في مدرسة المعلمين في " زطات"

نظر إليه الأب بوجهه الكالح ورد:

- سير الله ينجحك تعود فقيه تقرا وتقرّي وتشد الفلوس ، وتهلّا في بّاك وغضيفة مُيمّتك.

أصرّ الأصدقاء الحاضرون، على أن يدفع البوعزوي ثمن " بطة كاكولا "، احتفاء بالمناسبة التاريخية، راوغَ في البداية وقال:

- حتى يزيد ونسمّيوه سعيد

لكن هتافات الاحتجاج، لم تترك له مجالا للإفلات، فدفع ثمن المشروب على مضض.

انسحب بوعلالة، قاصدا حَطَّتهم الرابضة قرب مسجد القرية، قابلته أمه بثيابها المهلهلة، ووجهها المائل إلى السمرة، حدقت فيه بعينيها الضيقتين، وقالت:

- تشرب شي كاس ديال أتاي تقاد بيه المزاج ابتسم، اقترب منها وضع يده على كتفيها، وقال:
 - أمي غضيبة طلبي الله يسّر عليّ، راني تسجات في مدرسة المعلمين، عالله يقبلوني.
- ردت:

- يكون خير، رُبّي كبير قبل يدها وقال:

- ماتنسايش شي رغيفات مع أتاي الله يحفظك، انسحب بهدوء، وقصد الإسطبل، دخل بسرعة ثم أغلق الباب بالمزلاج من الداخل، كانت البقرة مبروكة كما يحلو لأمه أن تسميها، تلحس جلد ابنتها، تجاوزها واتجه نحو حمارتهم المربوطة في ركن قصي من الإسطبل، اقترب منها، ربت على رأسها، أحس بالدم يجري في عروقه، اندفع خلفها، وأفرغ توتره الجنسي، خاطب نفسه: "قريباً أصبح معلماً، وأقطع مع هذه الممارسات، في زطات هناك نساء وبنات جميلات، صديقي ولد

شامة يقضي دائما حاجته بالملاح أو درب الصابون،
سأقلده وأنهى علاقتي بالحماره والأصابع الخمسة "

غادر الإسطبل مسرعا وهو يمني النفس بقطيعة وشيكة
مع المكان .

وجد صينية الشاي والرغيفات بغرفته، فأكل هنيئاً
مريئاً، وهتف بأمه " الله يعطيك الصحة الغضيفة " .

محمد محضار الدار البيضاء 2016

20-سد الرمق

الطفلة تبتسم وتنظر الى أمها، سائل المخاط ملتحم بشاربها، ثيابها الرثة تحمل أثر التراب، يدها تحك رأسها الأشعث المقل، أمها مدفونة الجسد في ثوب وسخ، ملفوفة في نصف ملاءة قديمة، تنتعل حذاء بلاستيكي يطفح بالرائحة الكريهة. الطفلة والأم تتجولان بين جماعات المسافرين الواقفين على رصيف المحطة الأم تمد يدها المشققة:

- صدقة على الله والوالدين يا أولاد الحلال
تقتربان من شاب مكرفط وفتاة متبرجة تصحبه، تنظر الطفلة الى ساقى الفتاة الممتلئتين مستنشقة ذرات العبير المنبعثة من جسدها.. الأم تمد يدها قائلة:
- صدقة يا أولاد الحلال الله يكمل عليكم
يرد الشاب متأففا:
ابتعدي يا امرأة الله يعفو عليك وعلي.
تقول الفتاة مزدرية:
- " كثرتم الله يحضر السلامة ".
تبتعد الأم وطفلتها، الطفلة تنحني على الأرض، تلتقط علبة رايب فارغة، تبداً.
بلحس بقاياها.. الأم تتكئ على حائط أحد شبابيك التذاكير تحسب السنتيمات التي جمعتها منذ الصباح الباكر. منبهات الحافلات تحطم سكون المكان، ترمي الطفلة علبة الرايب بعد ان فرغت من لعقها. ماسح أذية شاب جالس على الارض امامه علبته، في يده اليمنى خرقة مخضبة بالسلسيون يشمها بنشوة، عيناه

مقلوبتان، شفتاه زرقاوتان، الطفلة تبثق فيه، يبدو غريبا الأم غير مكترثة بأمره، لها مشاكلها الخاصة، يقترب كهل مكتنز من ماسح الأحذية يضع قدمه على خشبة اللعبة . يشغل الماسح تجر الأم طفلتها وتترك مكانهما.

صرخة نسوية تُردّد صداها فجأة جدران المحطة ، تلتفت الأم وطفلتها، امرأة عجوز تسالت خصل من شعرها الأبيض عبر المنديل الذي تشد به رأسها تصيح وتصرخ:

- سرقوني يا مسلمين ضربوا لي الجيب خطفوا لي رزقي
يخ من المدينة يخ من المدينة.

بعض أبناء الحلال يحاولون زرع السكينة في نفسها، آخرون يهبونها نقودا .

شمس الربيع تنثر أشعتها الدافئة، رياح شمالية تهب منعشة، الأم وابنتها تغادران المحطة، تَعْنان على السويقة، تشتري الأم خبزة ودرهما زيتونا تجران أقدامهما عبر شوارع المدينة، بعد حين تصبح دورها وعماراتها خلف ظهريهما وبمواجهتهما مدينة القصدير، ضجيج الأطفال يتهادى الى أسماعهما كلما تقدمتا . تصلانها.

الطفلة تبتسم لمجموعة من البنات المتسخات مثلها يلعبن بالحبل، الأم تهز رأسها مسلمة على كهلة ضامرة العود تقف قرب باب براككة..

عند مدخل براكتهما اقتعد الأب صخرة متوسطة الحجم موجة من دخان الكيف ترتفع من شقف السبسي الذي

يدخله... الطفلة تهرول نحوه مقبلة خده الممتقع، ترتسم على شفثيه الذابلتين ابتسامة لاهثة، الأم تقترب منهما. يرفع الأب رأسه نحوها:

- "لم أجمع اليوم الا سنتيمات قليلة، رواد السوق البلدي كانوا قلة وأكثرهم من الشباب وانت تعرفين أولاد اليوم"

- المحطة كانت مكتظة لكن بركة هذا الصباح كانت قليلة المهم ان نسد الرمق ونعيش.

يدلف الثلاثة الى داخل البراقة. تضع الأم حبات الزيتون في طبق قصديري، يجتمعون حوله جالسين على حصيرة مهترئة.

نشرت هذه الاقصوصة بجريدة العلم سنة 1987

21- الكرامة الضائعة

أحس بصمت رهيب يغشاه، وهو يتلمس خطاه بين السابلة دون هدف أو غاية، حياته تفتقد هذه الأيام إلى المعنى فهي شاحبة ذابلة ولا شيء يمكن أن يغير طعمها الناشز، هناك أشياء كثيرة حدثت في أزمنة مختلفة وغيّرت العديد من مجريات هذه الحياة، وأكسبتها هذه المرة التي يتذوقها بمفرده .

كان الناس يسировون في إتجاهات متباينة كان هو بينهم رقما ضائعا سُرقت منه هويته، وتُرك لحاله هائما على وجهه في هذه المدينة اللئيمة التي تبجل المخنثين وتفتح فخديها لتتلقف قمامة التفهاء القادمين من جزيرة الغربان، منذ يومين طرد من الفندق المخملي الذي كان يشغل به، لأنه ضرب أحد غربان الجزيرة بقوة على مؤخرته بعد أن تجرأ ونعته بابن العاهرة بسبب تأخره في تقديم زجاجة شمبانيا له .. " الكرامة هي الإنسان، وحين يفقد الإنسان كرامته في وطنه فالموت أهون " بهذه العبارة ردّ عليه ثم نفذ شريعة الرجال فيه دون هوادة أو تردد، ولم يفلح حرس الأمن الخاص في إيقاف جنونه فقد كان هائجا كثور ثائر، أقسم أن يفرغ زجاجة الشمبانيا في في إست الغراب وفعل.

لا تهمه الآن الأحكام التي تنتظره، ولا دريهمات
الحقارة التي يحصل عليه من شغله في فندق الوضاعة
فكرامته تاج على رأسه.

كان قد قطع مسافة طويلة، دون أن يحس، وعندما تاب
إلى نفسه اكتشف أنه بالكورنيش، تسربت إلى خياشمه
نسمات ريح رطبة.

وتهادى إلى أسماعه هدير الموج قويا، يضاهي ذلك
الهدير المدوي في أعماقه، وفي تلك اللحظة تذكر أمه
وخبزها الساخن، وأحس بحنين لابتسامات والده وهو
يقدم البرسيم لبقرتهم الوحيدة، وتمنى لو أنه طار إلى
قريته الأطلسية في هذه اللحظة .

محمد محضار 12 دجنبر 2015

22- الوجه القديم

من اعماق البركة حيث تسكن الضفادع، يأتيك الصوت النسائي بكلماته المعهودة، تلعن الشيطان، وتخرج من الزقاق الضيق، ماذا لو ينفجر رأسك لتسيل منه كل الاوهام، ورغباتك المكبوتة. ربما سيرقص الجزء الأسفل من جسمك .. ربما سيضحك الشيطان.

حين تبتلعك الدوامة وتدور معها في الفراغ الموحش، حينئذ يكون كل شئ قد صار مباحا، وتكون صرختك التي لا تعرف ما وراءها شيئا منطقيا ومعقولا.

تحس بالعواصف تجعلك ألعبوبة في يدها، تشعر بالبرد، والصيف في أوله. تحس أن قوتك خائرة، تحس الموت وأنت في البداية. تمتد قوى غريبة في شكل حلزوني للإمساك بجسمك النحيف، وتجره الى النهر، لكن!! قوة جسمك العنيد تنتصر عليها في هزيمتك. تبحث عن النور بجذ، عيناك لا تتحملان الظلام، تبحث ثم تبحث، وفي الاخير تستسلم للواقع، وتترك الظلام يدخل عينيك فجسمك، ثم يشل حركاتك.

تتجه في ضعف الى زاوية الذين يموتون بردا، تترك وجهك القديم يحتضر، بل تقتله قبل ان يموت ثم تلبس الوجه الجديد .

مسحت عرقك بعد أن وضعت حملك الثقيل، وفي
ذاكرتك حلم، هل نسيتَه؟؟ الحلم الذي لا يفارق ذاكرتك
منذ الأزل كنت وما زلت تريد أن تضاجع جسما ولا
يزال عالقا بخيالك، لكنك خفت، لعلك تذكرت يوما مرّ
في حياتك ولن تنساه أو ربما خجلت من نفسك.

محمد محضار خريكة نونبر 1978

23- بركة الماء

الطفل بيتسم وينظر حوله.. في قدميه بوط
أسود.. جسمه الضامر يرفل في جباب صوفي بني
اللون.. أرنبه أنفه حمراء من شدة القرّ ويداه تعروهما
زرقة بفعل الصقيع.

الطفل يحتضن محفظته البالية.. يقفز ويلعب في
برك الماء الممتدة على طول الطريق المفضي الى
المدرسة.. قبل حين شرب شايا وأكل خبزا وزيتا، ثم
قبل يد أمه وأبيه.

قال له أبوه: إنتبه الى الطريق، لا تلعب في برك
الماء..

الطفل يمارس شغبه بعفوية.. يختار دائما البرك
العميقة ليخوض فيها ببوطه الأسود.

بناية المدرسة تلوح من بعيد، التلاميذ يهرولون،
مستحثين الخطى.. الطفل دائما يلعب ويمرح غير آبه
بالبرد القارس، لمح صديقه موحا يسير
بمحاذاته.... ناداه بصوت جهير:

- موحا وا موحا اقترب تعالى نجوس برك الماء
يرد موحا بصوت أجش:

- وقت الدخول اقترب سيعاقبنا المعلم إذا تأخرنا

- لن تتأخر ..تعالى تعالى يا صديقي
موحا يرفض مجارة صديقه..الطفل يندفع بمفرده نحو
بركة فسيحة... يصرخ بصوت عال:
انا لحسن الغواص
- موحا ينظر إليه مبتسما ..الطفل يواصل اندفاعه في
بركة الماء، قدماه تغوصان، الماء يحتضنه وهو
يضحك..فجأة يتوقف ضحكه ثم يختفي تحت الماء.
يصرخ موحا ... يولول:
- لحسن غرق في الضاية..لحسن غرق في الحفرة

محمد محضار يناير 2008

الفهرس

3	مقدمة
9	 الفصل الأول :
10	 1 - خلف السراب
25	 الفصل الثاني :
33	 الفصل الثالث :
47	 الفصل الرابع :
67	 الفصل الخامس :
92	 2- بين الأرض و السماء
110	 3 - العذراء والدم
120	 4- صالح
126	 5- لعبة الحياة
130	 6- رحلة الصمت
133	 7- اللحظات الميتة
137	 8 - شاعر يحكي
142	 8 - شرود من نوع خاص
149	 10 - زمن التفاصيل
154	 11 - عبير الماضي

12 - العامريات	161
13 - عشاء الليلة	164
14- ثمن الكرامة	168
15 - درسنا اليوم	175
16 - الحقيقة الضائعة	180
17 - في انتظار الزائر الكريم	185
18 -المفتش يشرفنا	192
19-حلم بوعلالة	200
20-سد الرmq	204
21- الكرامة الضائعة	208
22-الوجه القديم	211
23-بركة الماء	214